مجلة البيان ، السنة العاشرة ، العدد 90 ، صفر 1416هـ ، يوليو 1995م

كلمة صغيرة

خداع العناوين

كتب بعض الكتاب والعلماء عن خداع العناوين ووضحوا كيف تكون بعض العناوين أحياناً بعكس ما تحويه تماماً .

ومن هذا القبيل : مجلة تسمى (منار الهدى) وهي حَريّة أن يكون اسمها : (منار الردى) ؛ فهي لسان حال ما يسمى ب (جمعية المشاريع الخيرية بلبنان ، أو بمعنى أوضح : (جماعة الأحباش) أتباع عبد الله الحبشي ، وحين تتصفحها تصطدم بالكذب والافتراء والخداع ، فشيخهم يزعم أنه خادم السنة وهو يذبحها من الوريد إلى الوريد ، لما يشيعه بين أتباعه من شركيات وبدعيات ، ومما تنشره مجلتهم تلك :

1- التحذير من العقيدة السلفية وعلمائها بدعوى كونهم وهابيين .

2- تلميع رجال البدعة المنحرفين قديماً وحديثاً ونشر تراثهم المقبور .

3- الهجوم على علماء الإسلام المعروفين وتلويث سمعتهم بكل كذب وزور .

4- موالاتهم للرافضة والباطنيين وأهل الزيغ والضلال ، ومعاداتهم لأهل السنة الحقة .

وقد حذر من انحرافهم الكثير من العلماء كسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، والعلامة الألباني ، والشيخ عثمان الصافي ، ود . عوض منصور ، وعبد الرحمن دمشقية .. وغيرهم .

ومع وضوح ضلالاتهم فما زال يغتر بهم بعض السذج والبسطاء بعد أن استغلوا ولبّسوا على بعض الرموز البارزة في تزكية أنفسهم .

ولعله يتسنى للمجلة بيان المزيد من ضلالهم وانحرافهم في مناسبة قادمة -إن شاء الله (تعالى) -والله المستعان .

افتتاحية العدد

دروسٌ من الأحداث

الناظر في أحوال الأمة الإسلامية يجد أنّ المآسي والنكبات قد اتسع نطاقها
وبدأت تتناثر هنا وهناك ، فلا تكاد تخف وطأة الكفر أو الظلم على المسلمين في بلد
من البلدان حتى تفاجأ الأمّة بنكبة أو نكبات جديدة ترقق ما كان قبلها !
وعلى الرغم من الآلام والأحزان التي تملأ قلوب المخلصين ، إلا أنّ هذه
المآسي تحمل في ثناياها دروساً عظيمة جديرة بالتأمل والدرس ، فبشائر النصر
والتمكين تلوح في الأفق ، ومن هذه الدروس :
أولاً : أنّ الأمم والحضارات تمرّ بسنوات قوة وانتشار وتمكين ، ثم تنتكس
وتتلاشى تدريجيّاً حتى تموت وتصبح حدثاً تاريخيّاً تطويه السنون ، فكم من حضارة
سادت وطغت ولكن الله (عز وجل) أخذها أخذ عزيز مقتدر ، قال الله (تعالى) :
 أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلادِ *
وَثَمُودَ الَذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَذِينَ طَغَوْا فِي البِلادِ *
فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ
[الفجر : 6 -14] .
ولكنّ الأمة الإسلامية على الرغم من تتابع القرون ، وتكاثر العقبات والهزائم
المتلاحقة التي مرّت بها ، إلا أنها بفضل الله وقوته لم تمت وإن ضعفت أو تمزق
بعض أطرافها ؛ فهي تملك أعظم مقومات البقاء والثبات .
ثانياً : أنّ الشعوب الإسلامية المعاصرة جرّبت كل ألوان الشعارات الجاهلية ،
وظلت تتقلب فيها سنين متتابعة ، ولكنها سرعان ما استيقظت من غفلتها ، وعرفت
إفلاس تلك الشعارات وزيفها وقصورها ، فعادت ثانية إلى هويتها وجذورها
التاريخية ، وعرفت طريق العز والتمكين .
وإن الأمة الإسلامية من أدناها إلى أقصاها متعطشة عطشاً شديداً لهذا الدين

الحنيف ، فقد ملّت العبث بها وخداعها وسرقة عقولها ومقدراتها ، وأيقنت أنّ
خلاصها الحقيقي إنّما هو باعتصامها بحبل الله المتين .
والأمة المريضة الهزيلة لا يعبأ بها أحد على الإطلاق ، ولا يُلقي لها الناس
بالاً ، ولا تستحق أن تُقدر أو تهاب ، أو حتى يُنظر إليها ، ولكنّ الأمّة الحية
المعطاءة حينما تبدأ بالحركة والتململ يهابها الناس ، ويحسبون لها حساباً جديداً ،
لأنها عادت إلى هويتها الحقيقية معتزة بها ، ولذا : فهم يحاولون كبتها وقطع
جذورها ووأدها في مهدها ، ويتعاملون معها بكل صلف وظلم وجبروت .
ثالثاً : أنّ ما يصيب الأمة من محن ومآسٍ إنّما هو بسبب خورها وضعفها ؛
قال الله (تعالى) : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا
يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِياً وَلا نَصِيراً ﴾ [النساء : 123] ، وقال الله (تعالى) : ﴿ أَوَ
لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : 165] .
والنياحة والتباكي على حال المسلمين لن يُغيّر شيئاً من الواقع ، فهي حيلة
العجزة القاعدين الذين يرضون الدنيّة في دينهم .. وليست النائحة الثكلى كالنائحة
المستأجرة .. !
وإنّ طريق التغيير والتمكين طريق طويلة متعددة الدروب وعرة المسالك ،
يمتحن الله (عز وجل) بها أولياءه ، ونصر الله (عز وجل) وفضله إنّما يتنزل على
الصادقين المخلصين ؛ قال الله (تعالى) : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم
مَّثَلُ الَذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : 214] .
وإمامة الشعوب وقيادتها ليست أماني وأحلاماً وشعارات ؛ وإنّما تكون ببذل
الأسباب الشرعية المأمور بها في كتاب الله (عز وجل) وسنة نبيه محمد ؛ قال الله

(تعالى) : ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي
الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : 124] ، وقال الله (تعالى) : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا
لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : 24] .

رابعاً : أنّ الظهور والغلبة في النهاية إن شاء الله (تعالى) مهما طال الطريق
وكثرت العقبات وزادت المكائد لأولياء الله المؤمنين ، وهذا وعد قاطع لا شك فيه ؛
قال الله (عز وجل) : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ المَنصُورُونَ
* وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ ﴾ [الصافات : 171-173] .

وإن هذه الغلبة والمنعة لا تأتي من ضياع الهوية والذوبان في الغرب أو
الشرق ، ولكنها تأتي بعظيم الثقة بالله (تعالى) والاعتماد عليه وحده لا شريك له ؛
قال الله (تعالى) : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ
الكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ * أَمَّنْ هَذَا الَذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ
وَنُفُورٍ * أَفَمَن يَمْشِي مُكِباً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِياً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾
[الملك : 20-22]

خامساً : أنّ مكائد الأعداء تتلون وتتغير بتغير المواقف والأحداث ، والفطنة
والذكاء يجب ألا تكون مقصورة عليهم ، فالمسلم يجب أن يكون متوقد الإحساس ،
يقظاً لا تنطلي عليه الأحابيل والدسائس ؛ قال الله (تعالى) : ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ
وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام : 55] .

لقد كانت الحكومات العلمانية تعلن الحرب الصراح على الإسلام وأهله ،
وتفتح السجون والمعتقلات لمجرّد الانتساب إلى الإسلام والمحافظة على الصلوات ،
وجرّبت كل ألوان القمع والتنكيل لإيقاف هذا المدّ المبارك ، ولكنها أدركت وبعد
طول تجربة أنها لا تستطيع أن تقف أمام رجالات هذا الدين ؛ فالمحن لا تزيدهم إلا
قوة ورسوخاً .. ! ولهذا : لجأت إلى ألعوبة ماكرة أرادت أن تخدع بها السذج
والبسطاء ، ألا وهي التترس بالإسلام ورفع شعاره بين الناس .. ! !

ولكنه الإسلام المعدّل (المرمّم !) الذي قصت أجنحته ، ومُسخت معالمه
وضاعت هويته .. ليتلاءم في النهاية مع الأطروحات العلمانية ، ويقف معها في
خندق واحد .. !
إنه إسلام الدروشة والطرقية .. إسلام الأضرحة والمزارات والأهازيج
الدينية .. !
إسلام الأحوال الشخصية وحسب .. ! !
قال الله (تعالى) : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم
بِمُؤْمِنِينَ* يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُون ﴾ [البقرة : 8، 10]
وقال الله (تعالى) : ﴿ وَإذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ
خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾
[المنافقون : 4] .
فالله نسأل أن يعز دينه ويعلي كلمته ، وأن يرينا في أعداء هذا الدين ما تسر
به نفوس المؤمنين ، حتى يكونوا عبرة لمن يعتبر ..
والله من وراء القصد ..

دراسات شرعية

كلمات في فقه الصحابة (رضي الله عنهم)

د . عبد العزيز آل عبد اللطيف

الحمد لله (تعالى) وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعد ..
من أصول أهل السنة والجماعة : التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله
والاقتداء بهم كما قرر ذلك الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله تعالى) [1] .
لقد كان الصحابة (رضي الله عنهم) خير قرون هذه الأمة وأفضلها ؛ كما أخبر
الصادق المصدوق -صلى الله عليه وسلم- في قوله : خير الناس قرني ، ثم الذين
يلونهم ، ثم الذين يلونهم ... [2] .

وقال عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) : من كان مستنّاً فليستن بمن قد
مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب رسول الله -صلى الله عليه
وسلم- ، كانوا والله أفضل هذه الأمة ، وأبرها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ،
قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم
في آثارهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم ، فإنهم كانوا
على الهدى المستقيم [3] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله تعالى) معلقاً على هذا الأثر : وقول
عبد الله بن مسعود : كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً كلام
جامع ؛ بيّن فيه حسن مقصدهم ونياتهم ببر القلوب ، وبيّن فيه كمال المعرفة ودقتها
بعمق العلم ، وبيّن فيه تيسير ذلك عليهم وامتناعهم من القول بلا علم بقلة
التكلف [4] .

وقال بعضهم للحسن البصري (رحمه الله) : أخبرنا صفة أصحاب رسول
الله -صلى الله عليه وسلم- ، فبكى الحسن ثم قال : ظهرت منهم
علامات الخير في السيماء والسمت والهدي والصدق ، وخشونة
ملابسهم بالاقتصاد ، وممشاهم بالتواضع ، ومنطقهم بالعمل ،
ومطعمهم ومشربهم بالطيب من الرزق ، وخضوعهم
بالطاعة لربهم (تعالى)
،
واستقادتهم للحق فيما أحبوا وكرهوا ، وإعطاؤهم الحق من أنفسهم ،
ظمئت هواجرهم ، ونحلت أجسامهم ، واستخفوا بسخط المخلوقين
في رضى الخالق ، لم يفرطوا في غضب ، ولم يحيفوا ولم يجاوزوا حكم
الله في القرآن ، شغلوا الألسن بالذكر ، بذلوا دماءهم حين استنصرهم
، وبذلوا أموالهم حين استقرضهم ، ولم يمنعهم خوفهم من المخلوقين
، حسنت أخلاقهم ، وهانت مؤنتهم ، وكفاهم اليسير من دنياهم إلى
آخرتهم [5] .

* لقد أدرك سلفنا الصالح قدر الصحابة (رضي الله عنهم) ، فقاموا بحقوق
الصحابة علماً وعملاً ، اعتقاداً وسلوكاً ، فهداهم الله (تعالى) إلى الصراط المستقيم ،
وخالف المبتدعةُ سبيل أهل السنة ، فطعنوا في الصحابة (رضي الله عنهم) ،
وشتموهم ، ومن ثم : فقد ضلوا ضلالاً بعيداً ، وكلما زاد سبّ المبتدعة للصحابة

(رضي الله عنهم) : زادوا ضلالاً وغيّاً ، كما هو ظاهر في طائفة الرافضة وإخوانهم
الباطنية ، ويليهم في الضلال : الخوارج والمعتزلة ، فلما كان عداء الخوارج
والمعتزلة للصحابة دون عداء الباطنية ، فإن ضلالهم أقل ، وانحرافهم أدنى من
الباطنية ، وكان الأشاعرة قريبين من أهل السنة في باب الصحابة ، ولذا : كانوا
أقرب من غيرهم ، مع أنهم لم ينفكوا عن شعبة من الرفض عندما زعموا أن مذهب
السلف أسلم ، ومذهب الخلف أعلم وأحكم [6] . [*]

كان الصحابة (رضي الله عنهم) على عقيدة واحدة ، فهم خير القرون ، قد
تلقوا الدين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بلا واسطة ، ففهموا من مقاصده -
صلى الله عليه وسلم- ، وعاينوا من أفعاله ، وسمعوا منه شفاهاً ما لم يحصل لمن
بعدهم [7] .

لقد تلقوا النصوص بالقبول والتسليم ، وقابلوها بالإيمان والتعظيم ، وجعلوا
الأمر فيها أمراً واحداً ، وأجروها على سَنن واحد ، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء
والبدع ، حيث جعلوها عضين ؛ فآمنوا ببعضها ، وأنكروا بعضها من غير فرقان
مبين [8] .

قال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) : قف حيث وقف القوم ،
فإنهم عن علم وقفوا ، وببصر نافذ كفوا ، وَلَهُمْ على كشفها كانوا أقوى ، وبالفضل
لو كان فيها أحرى ، فلئن قلتم حدث بعدهم ، فما أحدثه إلا من خالف هديهم ،
ورغب عن سنتهم ، ولقد وصفوا منه ما يشفي ، وتكلموا منه بما يكفي ، فما فوقهم
محسّر ، وما دونهم مقصّر ، لقد قصّر عنهم قوم فجفوا ، وتجاوزهم آخرون فغلوا ،
وإنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم [9] .

وأوصى الإمام الأوزاعي (رحمه الله) من سأله عن القَدَر بهذه الوصية : وأنا
أوصيك بواحدة ، فإنها تجلو الشك عنك ، وتصيب بالاعتصام بها سبيل الرشد إن
شاء الله (تعالى) : تنظر إلى ما كان عليه أصحاب رسول الله -صلى الله عليه

وسلم- من هذا الأمر ؛ فإن كانوا اختلفوا فيه ، فخذ بما وافقك من أقاويلهم ، فإنك
حينئذ منه في سعة ، وإن كانوا اجتمعوا منه على أمر واحد لم يشذ عنه منهم أحد ،
فأين المذهب عنهم ، فإن الهلكة في خلافهم ، وإنهم لم يجتمعوا على شيء قط فكان
الهدى في غيره ، وقد أثنى الله (عز وجل) على أهل القدوة بهم فقال : ﴿ وَالَّذِينَ
اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ... ﴾ [التوبة : 100] واحذر كل متأول للقرآن على خلاف ما
كانوا عليه .. [10].

وكان اجتهاد الصحابة في مسائل الفقه والفروع أكمل من اجتهادات
من بعدهم ، وصوابهم أكمل من صواب المتأخرين ، وخطؤهم أخف من
خطأ المتأخرين [11]، ولذا : قال الإمام الشافعي (رحمه الله) : هم فوقنا في كل علم وفقه ودين وهدى ،
ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا [12].

يقول ابن القيم معلقاً على كلام الشافعي : قد كان أحدهم يرى الرأي فينزل
القرآن بموافقته ... وحقيق بمن كانت آراؤهم بهذه المنزلة : أن يكون رأيهم لنا
خيراً من رأينا لأنفسنا ، وكيف لا وهو الرأي الصادر من قلوب ممتلئة نوراً وإيماناً
وحكمة وعلماً ومعرفة وفهماً عن الله ورسوله ونصيحة للأمة ، وقلوبهم على قلب
نبيهم ، ولا وساطة بينهم وبينه ، وهم ينقلون العلم والإيمان من مشكاة النبوة غضّاً
طريّاً لم يَشُبْه إشكال ، ولم يَشُبْه خلاف [13].

وفي باب التعبد والسلوك كان الصحابة (رضي الله عنهم) أرباب النسك
الشرعي الكامل كما سبق وصفهم في مقالة الحسن البصري يقول ابن تيمية : فالعلم
المشروع والنسك المشروع مأخوذ عن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه
وسلم-، وأما ما جاء عن من بعدهم فلا ينبغي أن يجعل أصلاً ... فمن بنى الإرادة
والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية
والأعمال البدنية على الإيمان والسنة والهدى الذي كان عليه محمد -صلى الله عليه
وسلم- وأصحابه : فقد أصاب طريق النبوة ، وهذه طريق أئمة الهدى [14].

* لقد خلّف الصحابة (رضي الله عنهم) ثروة نفيسة من الأقوال المأثورة ،

والمواقف العملية المسطورة في سائر المجالات من : عقيدة ، أو فقه ، أو سلوك ،
أو دعوة ... إلخ ، وكم نحتاج إلى النظر في تلك الآثار ، والانتفاع بها ، خاصة في
هذا الزمان الذي كثر فيه ولله الحمد من يطالب بالأخذ بالكتاب والسنة .

أهمية متابعة منهج الصحابة :

إن الرجوع إلى كلام الصحابة (رضي الله عنهم) في فهمهم للنصوص
الشرعية من القواعد الجليلة والقضايا الكبيرة التي تحقق سلامة في المنهج ، ونجاة
من الشبهات والشهوات والضلال والغي .

وأقدم لك أخي القارئ جملة من أقوال الصحابة (رضي الله عنهم) وما تضمنته
من المعاني المهمة والمسائل المفيدة ، راجياً من الله (تعالى) أن تكون باعثاً إلى
الاستفادة من فقههم والانتفاع بعلومهم (رضي الله عنهم) :

* يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : لولا ثلاث
لأحببت أن أكون قد لحقت بالله ، لولا أن أسير في سبيل الله ، أو أضع جبهتي في
التراب ساجداً ، أو أجالس قوماً يلتقطون طيب الكلام كما يُلتقط طيب الثمر [15] .

يقول ابن تيمية في بيان عظم هذه المقالة الرائعة : وكلام عمر (رضي الله
عنه) من أجمع الكلام وأكمله ، فإنه ملهم محَدّث ، كل كلمة من كلامه تجمع علماً
كثيراً ، مثل هؤلاء الثلاث التي ذكرهن ؛ فإنه ذكر الصلاة ، والجهاد ، والعلم ،
وهذه الثلاث هي أفضل الأعمال بإجماع الأمة ؛ قال أحمد بن حنبل : أفضل ما
تطوع به الإنسان : الجهاد ، وقال الشافعي : أفضل ما تطوع به : الصلاة ، وقال
أبو حنيفة ومالك : العلم .

والتحقيق أن كلاّ من الثلاثة لابد له من الآخرَيْن ، وقد يكون هذا أفضل في
حال ، وهذا أفضل في حال ، كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- وخلفاؤه يفعلون
هذا وهذا وهذا ، كلّ في موضعه بحسب الحاجة والمصلحة ، وعمر جمع
الثلاث [16] .

* وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قال : لا يَرْجُوَنّ
عبد إلا ربه ، ولا يخافَنّ إلا ذنبه [17] .
وقد سئل ابن تيمية عن معنى هذه العبارة ، فكان مما قاله (رحمه الله) : هذا
من أحسن الكلام وأبلغه وأتمه ، فإن الرجاء يكون للخير ، والخوف يكون من الشر ،
والعبد إنما يصيبه الشر بذنوبه ، كما قال (تعالى) : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا
كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : 30] ، وقال (تعالى) : ﴿ فَأَخَذْنَاهُم
بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلا إذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾
[الأنعام : 42 ، 43] أي : فهلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، فحقهم عند مجيء البأس : التضرع ؛ قال عمر بن عبد العزيز : ما نزل بلاء إلا بذنب
، ولا رفع إلا بتوبة ، ولهذا قال (تعالى) : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ
قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيمَاناً ﴾ إلى أن قال (تعالى) : ﴿ إنَّمَا
ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾
[آل عمران : 173- 175] فنهى المؤمنين عن خوف أولياء الشيطان
وأمرهم بخوفه ، وخوفه يوجب فعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه ،
والاستغفار من الذنوب ، وحينئذ يندفع البلاء ، ويُنتصر على الأعداء ، فلهذا
قال علي (رضي الله عنه) : لا يَخَافَنّ عبد إلا ذنبه ، وإن سلط عليه مخلوق
، فما سلط عليه إلا بذنوبه ؛ فليخف الله ، وليتب من ذنوبه التي ناله بها ما ناله .
وأما قوله : لا يَرْجُونّ عبد إلا ربه ، فإن الراجي يطلب حصول الخير ودفع
الشر ، ولا يأتي بالحسنات إلا الله ، ولا يذهب السيئات إلا الله ، ﴿ وَإن يَمْسَسْكَ اللَّهُ
بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ وَإن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾
[الأنعام : 17] والرجاء مقرون بالتوكل ، فإن المتوكل يطلب ما رجاه من
حصول المنفعة ودفع المضرة ، والتوكل لا يجوز إلا على الله ، كما قال (تعالى) :
﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : 23] فكل خير ونعمة
تنال العبد فإنما هي من الله ، فالرجاء يجب أن يكون كله للرب ، والتوكل
عليه ، والدعاء له ، فإنه إن شاء ذلك ويسره : كان وتيسر - ولو لم يشأ
الناس - [18] .
* وقال عمار بن ياسر (رضي الله عنه) : ثلاث من جمعهن فقد جمع
الإيمان : الإنصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالَم ، والإنفاق
من الإقتار [19] .
قال العلامة ابن القيم في شرح هذه الكلمات : وقد تضمنت هذه الكلمات أصول

الخير وفروعه ؛ فإن الإنصاف يوجب عليه أداء حقوق الله كاملة موفّرة ، وأداء
حقوق الناس كذلك ، وألا يطالبهم بما ليس له ، ويعاملهم بما يحب أن يعاملوا به ،
ويحكم لهم وعليهم بما يحكم به لنفسه وعليها ، ويدخل في هذا : إنصافه نفسه من
نفسه ، فلا يدعي لها ما ليس لها ، ويُنميها ويرفعها بطاعة الله (تعالى) وتوحيده ،
وحبّه وخوفه .

وبذل السلام للعالم : يتضمن تواضعه وأنه لا يتكبر على أحد ، بل يبذل
السلام للصغير والكبير ، والشريف والوضيع ، ومن يعرفه ومن لا يعرفه ...

وأما الإنفاق مع الإقتار فلا يصدر إلا عن قوة ثقة بالله ، وأن الله يُخلفه ما
أنفقه ، وعن قوة يقين ، وتوكل ، ورحمة ، وزهد في الدنيا ، ووثوق بوعد مَنْ وعده
مغفرة منه وفضلاً ، وتكذيباً بوعد من يعده الفقر ويأمره بالفحشاء [20] .

وجاء في فتح الباري : قال أبو الزناد بن سراج وغيره : إنما كان من جمع
الثلاث مستكملاً للإيمان ؛ لأن مداره عليها ، لأن العبد إذا اتصف بالإنصاف لم
يترك لمولاه حقّاً واجباً عليه إلا أداه ، ولم يترك شيئاً مما نهاه عنه إلا اجتنبه ، وهذا
يجمع أركان الإيمان
. وبذل السلام يتضمن مكارم الأخلاق والتواضع وعدم الاحتقار، ويحصل به التآلف والتحابب . والإنفاق من الإقتار يتضمن غاية الكرم لأنه إذا أنفق مع الإقتار كان مع التوسع أكثر إنفاقاً ، وكونه مع الإقتار يستلزم الوثوق بالله
والزهد في الدنيا وقصر الأمل وغير ذلك من مهمات الآخرة [21] .

* وقال أبو الدرداء (رضي الله عنه) : يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم ، كيف
يغبنون به قيام الحمقى وصومهم ، والذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال
عبادةً من المغترين [22] .

قال ابن القيم معلقاً على تلك العبارة : وهذا من جواهر الكلام وأدله على كمال
فقه الصحابة وتقدمهم على من بعدهم في كل خير (رضي الله عنهم) .

فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه ، والتقوى

في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح ، قال (تعالى) : ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ
اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القُلُوبِ ﴾ [الحج : 32] وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- :
التقوى ههنا وأشار إلى صدره ، فالكيّس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو
الهمة ، وتجريد القصد ، وصحة النية مع العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه
الفارغ من ذلك التعب الكثير ... إلخ [23] .

* وكان معاذ بن جبل (رضي الله عنه) لا يجلس مجلساً للذكر إلا قال حين
يجلس : الله حكم قسط ، تبارك اسمه ، هلك المرتابون ، إن وراءكم فتناً يكثر فيها
المال ، ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق ، والرجل والمرأة ، والصغير
والكبير ، والحر والعبد ، فيوشك قائل أن يقول : ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت
القرآن ، ما هم بمتبعيّ حتى أبتدع لهم غيره ، فإياكم وما ابتدع ، فإن ما ابتدع
ضلالة ، واحذروا زيغة الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق ، فاقبلوا الحق فإن
على الحق نوراً ، فقالوا : وما يدرينا (رحمك الله) أن الحكيم قد يقول كلمة
الضلالة ؟ قال : هي كلمة تنكرونها منه وتقولون ما هذه ، فلا يثنيكم فإنه يوشك أن يفيء
ويراجع بعض ما تعرفون [24] .

بهذه الكلمات النافعات لمعاذ بن جبل (رضي الله عنه) أختم هذه المقالة ، ولعل
القارئ الحصيف يُعمل فكره وتأمله في تلك العبارات ، والله المستعان .

---

(1) انظر : طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ج1 ، ص241 .
(2) البخاري : كتاب فضائل الصحابة ح/3651 .
(3) أورد ابن تيمية هذا الأثر في منهاج السنة النبوية ج2 ، ص77 ، وعزاه إلى ابن بطة ، ولعله في الإبانة الكبرى .
(4) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية : ج2 ، ص79 .
(5) أخرجه أبو نعيم في الحلية ، ج2 ، ص150 .
(*) هذه المقولة المشهورة عند أهل الكلام غير صحيحة ، انظر بيان خطئها في فتح رب البرية بتلخيص الحموية للشيخ محمد الصالح العثيمين ضمن مجموع فتاوى الشيخ ج2 ، ص25-29 والحقيقة أن المقولة يجب أن تكون أن مذهب السلف هو أسلم وأعلم وأحكم ، كما بين الشيخ (حفظه الله) .
(6) انظر : التسعينية لابن تيمية ، ص256 .
(7) انظر : مجموع الفتاوى لابن تيمية ، ج27 ، ص388 .
(8) انظر : إعلام الموقعين لابن القيم ، ج1 ، ص49 .
(9) أخرجه أبو نعيم في الحلية ، ج5 ، ص338 ، وأخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (القدر) : ج2 ، ص247 عن عبد العزيز الماجشون .
(10) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (القدر) : ج2 ، ص254 .

(11) انظر : منهاج السنة النبوية ، ج6 ، ص80 .
(12) انظر : إعلام الموقعين لابن القيم ، ج1 ، ص80 .
(13) إعلام الموقعين : ج1 ، ص81 ، 82 باختصار .
(14) مجموع الفتاوى : ج10 ، ص362 ، 363 باختصار .
(15) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ، ج13 ، ص272 .
(16) منهاج السنة النبوية : ج6 ، ص75 .
(17) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ، ج13 ، ص284 .
(18) مجموع الفتاوى : ج8، ص161 ، 166 باختصار .
(19) أخرجه البخاري تعليقاً ، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (ج1 ، ص 83) : مثله لا يقال بالرأي ؛ فهو في حكم الرفع .
(20) زاد المعاد : ج2 ، ص407 ، 410 باختصار .
(21) فتح الباري : ج1 ، ص83 .
(22) الفوائد لابن القيم : ص133 ، 134 .
(23) الفوائد لابن القيم : ص133 ، 134 .
(24) أخرجه أبو نعيم في الحلية ، ج1 ، ص232 ، 233 .

دراسات تربوية

الترويح عن النفس في الإسلام .. مفاهيم وضوابط

بقلم : فيصل البعداني

يعتبر الترويح عن النفس من الأمور المهمة التي قد يحتاجها المربون والدعاة
أثناء مخالطتهم للناس ودعوتهم إياهم ، إلا أن استخدام كثير من المشتغلين بالدعوة
والتربية له لا يتم بالصورة المطلوبة ، إذ يقعون أثناء ممارسته بين إفراط أو تفريط ؛ فمنهم من غلا فيه ، وصار جل همه مجرد الترويح عن من يدعوهم بدعوى
كسبهم وتحبيبهم في الخير الذي يدلهم عليه ، ومنهم من يرى أنه لا فائدة فيه بل هو
مضيعة للوقت مفسدة للعمر .

ولذا : فسأحاول هنا تبيان مفهوم الترويح في ضوء القيم والمبادئ الإسلامية
مع بيان أهميته وتقديم شيء من أدلته وخصائصه ، وإبراز ما يوفق الله له من
ضوابط وقواعد شرعية علّ ذلك أن يدفع إلى استخدام صحيح للترويح ، وممارسة
له منضبطة بالشرع الحنيف .

تعريف الترويح :

تدور مادة (روح) في اللغة حول معاني : السعة ، والفسحة ، والانبساط ،
وإزالة التعب والمشقة ، وإدخال السرور على النفس ، والانتقال من حال إلى آخر
أكثر تشويقاً منه [1] ، وتختلف تعريفات الترويح في اصطلاحات الباحثين نظراً

لاختلافهم في الاتجاهات التي ينطلقون منها لتحديد ماهيته ، فمنهم :
1- من يربط الترويح بالغرض الذي يؤديه ، وعليه : فالترويح هو : التسرية
والتنفيس عن النفس [2] ويسمي بعضهم هذا الاتجاه بنظرية التعبير الذاتي [3] .
2- من يربط الترويح بالوقت ، وعليه : فالترويح هو : التعبير المضاد للعمل
على أساس أن الإنسان قليلاً ما يجد في عمله نوعاً من الترويح [4] .
3- من يربط الترويح بالغرض الذي يؤديه والوقت معاً ، وعليه : فالترويح
هو : أوجه النشاط التي يمارسها الفرد في أوقات فراغه والتي يكون من نتائجها
الاسترخاء والرضى النفسي [5] .
4- وذهب بعض المختصين في الأعمال الترويحية إلى اشتراط النفع في
العمل الترويحي سواء أكان نفعاً فرديّاً أم جماعيّاً ، نفسيّاً أم بدنيّاً أم عقليّاً [6] .
ولن أطيل في هذا المقام باستعراض نصوص الباحثين في تعريف الترويح ،
بل سأقتصر على تعريف واحد آراه الأنسب ، وهو : أن الترويح عن النفس في
الإسلام عبارة عن : أوجه النشاط غير الضارة التي يمكن أن يقوم بها الفرد أو
الجماعة طوعاً في أوقات الفراغ بغرض تحقيق التوازن أو الاسترخاء للنفس
الإنسانية في ضوء القيم والمبادئ الإسلامية .
وفي ظل هذا التعريف ؛ فإنه من الممكن أن تكون تلك الأنشطة وجدانية ، أو
عقلية ، أو بدنية ، أو مركبة من كل ذلك أو بعضه .

أهمية الترويح :

تبرز أهمية الترويح عن النفس في جوانب كثيرة ، منها :
* تحقيق التوازن بين متطلبات الكائن البشري (روحية ، عقلية ، بدنية) ففي
الوقت الذي تكون فيه الغلبة لجانب من جوانب الإنسان يأتي الترويح ليحقق التوازن
بين ذلك الجانب الغالب وبقية الجوانب الأخرى المتغلب عليها .
* يساهم النشاط الترويحي في إكساب الفرد لخبرات ومهارات وأنماط معرفية ، كما يساهم في تنمية التذوق والموهبة ، ويهيء للإبداع والابتكار [7] .
* يساعد الاشتغال بالأنشطة الترويحية في إبعاد أفراد المجتمع عن التفكير أو

الوقوع في الجريمة ، وبخاصة في عصرنا (عصر التقنية) الذي ظهرت فيه البطالة
حتى أصبحت مشكلة وقلت فيه ساعات العمل والدراسة بشكل ملحوظ جدّاً ، وأصبح
وقت الفراغ أحد سمات هذا العصر [8] .

* من أبرز المسميات التي أطلقت على عصرنا : عصر التقنية ، و عصر
القلق ، و عصر الترويح .. وترتبط هذه المسميات بعلاقة وثيقة فيما بينها ؛ فالتقنية
تولد عنها القلق ، وأصبح الترويح أحد أهم متطلبات عصر التقنية والقلق ؛ لما له
من تأثير في الحد من المشاكل المترتبة عن ذلك [9] .

أدلة جواز الترويح :

لا يقدر بعض الدعاة أهمية الترويح ، وينظرون إليه على أنه مضيعة للوقت
مفسدة للعمر ، وفي هذا الأمر نظر ، إذ قد دلت النصوص الشرعية إجمالاً وتفصيلاً
على جواز الترويح ، بل إن منها ما دعت إليه وحثت عليه ، وسأكتفي هنا لعدم
مناسبة التوسع في الطرح ببعض الأدلة الإجمالية والتفصيلية ، فمن الأدلة الإجمالية :

* حديث حنظلة (رضي الله عنه) وفيه : .. قلت : نافق حنظلة يا رسول
الله ، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : وما ذاك ، قلت : يا رسول الله نكون
عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا
الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً ، فقال رسول الله -صلى الله عليه
وسلم- : والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي ، وفي الذكر ، لصافحتكم
الملائكة على فرشكم وفي الطرقات ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة [10] .

* حديث أبي جحيفة في الصحيح ، وفيه : .. فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأى
أم الدرداء متبذلة ، فقال : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في
الدنيا ، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً ، فقال له : كل ، قال : فإني صائم ، قال :
ما أنا بآكل حتى تأكل ، قال : فأكل ، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال : نم
فنام ، ثم ذهب يقوم فقال : نم ، فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن ،

فصليا فقال له سلمان : إن لربك عليك حقّاً ، ولنفسك عليك حقّاً ، ولأهلك عليك حقّاً ، فأعط كل ذي حق حقه ، فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فذكر ذلك له ، فقال
له النبي -صلى الله عليه وسلم- : صدق سلمان [11] .
* حديث عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) وفيه : أن
الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال : صُم وأفطر وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقّاً ، وإن لعينك عليك حقّاً ، وإن لزوجك عليك حقّاً ، وإن لزورك عليك حقّاً [12] وفي رواية : قال : قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : يا عبد الله بن عمرو : إنك لتصوم الدهر وتقوم الليل ، وإنك إذا فعلت ذلك هجمت له العين ونهكت ، لا صام من صام الأبد [13] .

ومن الأدلة التفصيلية :

1- عن أنس بن مالك أن النبي -صلى الله عليه وسلم-قال له : يا ذا الأذنين
قال أبو أسامة - أحد رواة الحديث - : يعني يمازحه [14] .
2- عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : كنت ألعب بالبنات عند النبي وكان
لي صواحب يلعبن معي ، فكان رسول الله إذا دخل يتقمعن[*]منه فيسر بهن
إليّ [15] .
3- قال محمود بن الربيع : إني لأعقل مجة مجها رسول الله في وجهي وأنا
ابن خمس سنين من دلو [16] .
4- عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت مع النبي-صلى الله عليه وسلم- في
سفر ، قالت : فسابقته فسبقته على رجلي ، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني ، فقال :
هذه بتلك [17] .
5- وعن عائشة رضي الله عنها قالت : والله لقد رأيت رسول الله-صلى الله
عليه وسلم- ، يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول
الله ، ستربي بردائه لكي أنظر إلى لعبهم ، ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي
أنصرف ، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن حريصةً على اللهو [18] .

خصائص الترويح عن النفس في الإسلام :

يمثل الإسلام نظام حياة متكامل عقيدة وشريعة يجب أن تنبثق عنه جميع
تصورات ومبادئ وقيم وسلوكيات الإنسان المسلم ، وعلى ذلك : ينبغي أن ننظر إلى

الموضوع الذي نحن بصدده (الترويح) من خلال الخصائص التي أعطاها له
الإسلام ، ومنها أنه :
1- عبودية لله (تعالى) :
قال الله (تعالى) : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : 162] والترويح هو جانب من المحيا في حياة المسلم ،
وبالتالي : فهو (لله رب العالمين لا شريك له) في حال إصلاح العبد لنيته
في ممارسته بشروط حلّه ، واتخاذه وسيلة لتحقيق عمل صالح أو
لتجديد نشاط المسلم في الأعمال الجادة؛ روي عن أبي الدرداء أنه
قال : إني لأستجم قلبي بالشيء من اللهو ليكون أقوى لي على الحق [19] .
2- ثابت المعالم متجدد الوسائل :
ليس للمسلم أثناء قيامه بنشاط ترويحي أن يتجاوز جوانب يوجب الإسلام
تركها لحرمتها أو ضررها بل عليه أن ينضبط بضوابط الإسلام ويحتكم بأحكامه ،
وهذا هو الجانب الثابت في الترويح ، وما سوى ذلك فللإنسان أن يبدع ويجدد فيه ما
شاء من كيفيات ووسائل ، وذلك الثبات في الترويح من جهة والإفساح وفتح المجال
للتجديد من جهة أخرى : هو أحد الخصائص المهمة للترويح في الإسلام .
3- يراعي طبيعة الفطرة الإنسانية :
عند التأمل في أنواع الترويح المشروع والمباح : نجده شاملاً لجميع حاجات
ودوافع الإنسان التي تتطلبها جوانبه المختلفة (الروح ، العقل ، الجسد) مما يدل على
أن من خصائصه العموم والشمول لجميع مكونات وخصائص الكائن البشري
ومراعاة الفطرة التي خلقه الله (تعالى) عليها .
4- يحقق التوازن بين جوانب الإنسان المختلفة :
للإنسان جوانب مختلفة (روح ، عقل ، جسد) ، وله ميول متنوعة ، قد تدفعه
إلى تغليب جانب أو أكثر على بقية الجوانب الأخرى ، ولكن نتيجة للترابط بين
جوانب الإنسان المختلفة نجده يكلّ ويملّ ، ويصعب عليه مواصلة المسير ، بل قد
يمتنع من ذلك ، وهنا يأتي دور الترويح لتحقيق التوازن بين تلك الجوانب ، لكي
يبتعد الإنسان عن الكلل والملل ، ويعاود المسير براحة وطمأنينة .

5- انطلاقة من دافِعِيّة وممارسة بانتقائية :
يتم الإقبال على ممارسة النشاط الترويحي وفقاً لرغبة الممارس ودافعيّته
الذاتية حسب حاله من الكلل والملل أو النشاط والهمة ، كما أن الإقبال يتم أيضاً وفقاً
لاختياره لأي نوع من أنواع الأنشطة الترويحية التي تناسبه وتحقق ميوله ورغبته
واحتياجاته .
6- لا يزحف على عمل جاد :
يتم النشاط الترويحي في وقت الفراغ ، والمراد به : الوقت الخالي عن
الأعمال الجادة كأوقات الشعائر التعبدية الواجبة ، وأوقات العمل ، وأوقات القيام
بواجبات ومستلزمات الحياة الأخرى ، كالأكل والنوم ، وما توجبه طبيعة الحياة
الاجتماعية من آداب مرعية كزيارة الأقارب ، وإكرام الضيف ، وعيادة المريض ..
ونحو ذلك .

ضوابط للترويح عن النفس في الإسلام :

1- الأصل في الترويح الإباحة :
ويدل لذلك حديث أبي الدرداء (رضي الله عنه) أن الرسول -صلى الله عليه
وسلم- قال : ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه
فهو عافية ، فاقبلوا من الله العافية ، فإن الله لم يكن نَسيّاً ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ وَمَا
كَانَ رَبُّكَ نَسِياً ﴾ [20] .
ومن القواعد المتقررة في الشرع أن الأصل في الأشياء الإباحة حتى يدل
الدليل على التحريم [21] .
2- الترويح وسيلة لا غاية :
الترويح وسيلة من الوسائل التي يستطيع بها الإنسان تحقيق التوازن بين
جوانبه المختلفة ، في حالة وجود اختلال بالإفراط في جانب على حساب بقية
الجوانب الأخرى ، وإذا تجاوز النشاط الترويحي هذا الحد وأصبح هدفاً وغاية في
ذاته ، فإنه يخرج من دائرة المستحب أو المباح إلى دائرة الكراهية أو الحرمة .
وبهذا الضابط يخرج الاحتراف لبعض الأنشطة الترويحية عن دائرة المباح أو

المشروع لأن فيه إخلالاً ببنية وهيكل النظام الاجتماعي القائم على تعاليم
الإسلام ،
وفيه قيادة أفراد الأمة إلى الميوعة والترف والانحلال ، أضف إلى ذلك :
تحقيق
ذلك لرغبات أعداء الأمة في إلهاء أفرادها وإشغالهم عن جوهر الصراع
الحضاري
الذي يمارسونه ضدها .

وأدلة هذا الضابط ظاهرة في الشريعة ، ومنها :

أن الإسلام رفض الإفراط في كمية العبادات الشرعية التي جاء آمراً
بنوعها
أمر وجوب أو استحباب ، إذا أُخرجت عن حد المألوف المستطاع ، ومن
النصوص
الدالة على ذلك - بالإضافة إلى ما سبق - :

* عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال : دخل النبي -صلى الله
عليه
وسلم- فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال : ما هذا الحبل ؟ قالوا : هذا
حبل لزينب
فإذا فترت تعلقت ، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- : لا ، حلوه ، ليصل
أحدكم
نشاطه ، فإذا فتر فليقعد [22] .

* عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله -صلى الله
عليه
وسلم- : إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم
يدر ما يقول
فليضطجع [23] .

وإذا كان هذا النهي عن أمر مشروع ، فما الحال بأمر مباح لم يأمر
الشارع
بنوعه ، يُزاد في كميته زيادة مفرطة ، تسبب ضياع المأمور به ، وتجحف
بالتوازن
بين جوانب الإنسان المختلفة ، وتغير هيكل النظام الاجتماعي الإسلامي ،
وتحقق
مكائد ومخططات أعداء الأمة الساعين إلى إلهائها وتقويض بنيانها ؟
! .

3- الجد هو الأصل ، والترويح فرع :

سبق ذِكْرُ أن النشاط الترويحي في التصور الإسلامي ما هو إلا حالة
علاجية ، لحصول الاختلال في إعطاء كل جانب من جوانب الكائن
البشري ما يستحقه من
النشاط والقوة ، ليعود الإنسان بكافة جوانبه لمواصلة السير في طريقه
إلى الله (عز
وجل) بجد ونشاط ومثابرة ، وسأحاول تأصيل ذلك والتأكيد على أن الجد
صاحب

التقدمة والسبق ، وأن الترويح تابع له ، وفرع عنه ، من خلال الأمرين التاليين :

أ- الأولوية للجد في حال التعارض :

يقدم الإسلام الجد على الترويح ، ويَظْهَر هذا جليّاً في سلوكياته -صلى الله عليه وسلم- وأقواله ، ومن ذلك : ما رواه أبو برزة الأسلمي (رضي الله عنه) أنه -صلى الله عليه وسلم- كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها [24] .

قال الحافظ ابن حجر أثناء شرحه لهذا الحديث : قوله : وكان يكره النوم قبلها والحديث بعدها لأن النوم قبلها قد يؤدي إلى إخراجها عن وقتها مطلقاً ، أو عن الوقت المختار ، والسمر بعدها قد يؤدي إلى النوم عن الصبح أو عن وقتها المختار [25] .

والقارئ الكريم يلاحظ أن الشارع لم يكره الترويح المتمثل في النوم لراحة البدن أو السمر لكونه سيؤدي إلى تضييع الواجب يقيناً ، بل لاحتمال أن يكون ذريعة إلى الوقوع في ذلك .

* ما رواه أبو هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : ولا تكثر الضحك ؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب [26] .

* عن سماك قال : قلت لجابر بن سمرة : أكنت تجالس رسول الله -صلى الله عليه وسلم ، قال : نعم ، فكان طويل الصمت ، قليل الضحك ، وكان أصحابه يذكرون عنده الشعر وشيئاً من أمورهم فيضحكون ، وربما تبسم [27] .

4- ألا يكون في النشاط الترويحي مخالفة شرعية :

يعتبر هذا الضابط الأهم من ضوابط النشاط الترويحي ، ولتطبيقه صور مختلفة ، منها :

* ألا يكون في النشاط الترويحي أذية للآخرين من سخرية ، أو لمز ، ونبز ، أو ترويع ، أو غيبة ، أو اعتداء على ممتلكاتهم بإتلاف أو استخدام ... ونحو ذلك ؛

قال الله (تعالى) : يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا

بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يَا
أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب
بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
تَوَّابٌ رَّحِيمٌ [الحجرات : 11 ، 12] ، وقال -صلى الله عليه وسلم- : لا يأخذن
أحدكم متاع أخيه لاعباً ولا جاداً .. [28] .

* ألا يكون في النشاط الترويحي كذب وافتراء ؛ قال -صلى الله عليه وسلم- : ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك منه القوم فيكذب ، ويل له ، ويل له [29] .

* ألا يكون في النشاط الترويحي تبذير للمال واستهلاك باذخ ؛ قال الله
(تعالى) : وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (26) إِنَّ
المُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً
[الإسراء : 26 ، 27] ، وسياق الآية في الإنفاق على ذي القربى والمسكين وابن السبيل ، فكيف الحال في الترويح [30] ؟ ! .

* ألا يكون في النشاط الترويحي اختلاط بين الرجال والنساء لما يفضي إليه
ذلك من النظر المحرم ، والخلوة المحرمة ، بالإضافة إلى أنه قد يكون ذريعة
لمخالفات شرعية أكبر ؛ قال الله (تعالى) : وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن
وَرَاءِ حِجَابٍ [الأحزاب : 53] ، وقال رسول الله : إياكم والدخول على النساء ،
فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله : أفرأيت الحمو ؟ قال : الحمو الموت [31] .

وعن جرير (رضي الله عنه) قال : سألت رسول الله عن نظر الفجاءة فأمرني
أن أصرف بصري [32] .

* ألا يكون في النشاط الترويحي نص على الحرمة .

ولقد جاءت بعض النصوص بتحريم بعض
أنواع ووسائل الترويح ، ومن ذلك :

أ -المعازف ؛ ورد في تحريمها نصوص ، منها قوله -صلى الله عليه وسلم- : ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف [33] .

ب -النرد ؛ قال ضص : من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده في لحم
الخنزير [34] .

ج -الميسر ؛ قال الله (تعالى) : يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا إنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ
وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
[المائدة : 90] .

د -التحريش بين البهائم ؛ قال ابن عباس (رضي الله عنهما) : نهى رسول
الله -صلى الله عليه وسلم- عن التحريش بين البهائم [35] [**] .

هـ -اتخاذ ما له روح غرضاً ؛ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : لا
تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً [36] .

و -تصوير ما له روح ؛ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : من صور
صورة في الدنيا كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح ، وليس بنافخ [37] .

ز -كثرة الضحك ، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : ولا تكثر
الضحك ؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب [38] .

ح -النظر إلى ما حرم الله (تعالى) ؛ ورد في ذلك نصوص كثيرة ، منها قوله
(تعالى) : قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إنَّ
اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ
فُرُوجَهُنَّ [النور : 30 ، 31] .

5- ألا يشغل النشاط الترويحي عن واجب شرعي أو اجتماعي :

الطابع العام لحياة المسلم : الجدية ، وما الترويح إلا عامل مساعد
للحياة الجادة ، والاستمرار فيها ، فإذا تجاوز الترويح هذا الحد فشغل عن الجد : فإنه يخرج إلى
دائرة المكروه أو المحرم بحسب نوع الجد الذي يشغل عنه ، فإذا كان شاغلاً عن
أداء واجب أو ترك محرم فإنه محرم ، وإن كان شاغلاً عن أداء مستحب أو ترك
مكروه فإنه مكروه ، لأنه أصبح ذريعة إلى الحرام أو المكروه ، وما كان ذريعة
إليهما أعطى حكمهما ، يقول أبو زهرة في بيان قاعدة سد الذرائع :

... وذلك لأن الشارع إذا كلف العباد أمراً فكل ما يتعين وسيلة إليه مطلوب ،
وإذا نهى الناس عن أمر فكل ما يؤدي إلى الوقوع فيه حرام أيضاً ، وقد ثبت هذا
بالاستقراء للتكليفات الشرعية طلباً ومنعاً . [39]

6- ألا يكون النشاط الترويحي ضارّاً على ممارسه :

إذا كان في النشاط الترويحي ضرر على ممارسه أيّاً كان نوع الضرر ولم يوجد فيه نفع يفوق ذلك الضرر فإنه يحرم على ذلك الممارس مزاولته ؛ لقوله -صلى الله عليه وسلم- : لا ضرر ولا ضرار [40] ، ولما قد تقرر في الشرع من قواعد مثل قاعدة : إذا اجتمع الحلال والحرام غُلّب الحرام [41] ، وقاعدة : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح [42] ، وبهذا تظهر حرمة أنواع من الرياضة في عصرنا كالملاكمة والمصارعة بوضعها الحالي والله أعلم لما تؤدي إليه من أضرار في الجسم ، بل وربما أدى بعضها إلى الوفاة أو الإعاقة كما هو مشاهد .

---

(1) انظر : معجم مقاييس اللغة ج2 ، ص454 ، الترويح للعودة ص23 .
(2) انظر : البدائل الإسلامية لمجالات الترويح المعاصرة لبسيوني ، ص 21 .
(3) انظر : الترويح ونظرياته في المجتمعات الحضرية المعاصرة د إسحاق القطب ، والمنشور في مجلة الدار عدد شوال 1402هـ .
(4) انظر : البدائل الإسلامية لمجالات الترويح المعاصرة لبسيوني ، ص 21 .
(5) انظر : الترويح وأوقات الفراغ لدرويش والحمامي ، ص21 .
(6) انظر : البدائل الإسلامية لبسيوني ، ص24 .
(7) انظر : الترويح وأوقات الفراغ لدرويش والحمامي ، ص25 .
(8) انظر : السابق ص63 ، 77 .
(9) انظر : السابق ص23 .
(10) مسلم م4 ، ص2106 ، ح2750 .
(11) البخاري مع الفتح ج4 ، ص209 ، ح 1968 .
(12) البخاري مع الفتح ج4 ، ص217 ، ح 1975 .
(13) مسلم م2 ، ص815 ، ح1159 .
(14) الترمذي ج4 ، ص358 ، ح 1992م ، وقال : صحيح غريب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ح7909 .
(*) في القاموس المحيط : تقمع فلان تحير أو جلس وحده ، والمقصود : أنهن يجلسن بعيداً عن النبي دون عائشة .
(15) البخاري مع الفتح ج10 ، ص526 ، ح 6103 .
(16) البخاري مع الفتح ج1 ، ص172 ، ح 77 .
(17) أخرجه أبو داود ، ج3 ، ص66 ، ح2578 ، وابن ماجة م1 ، ص 636 وقال في الزوائد : إسناده صحيح على شرط البخاري .
(18) مسلم م2 ، ص609 ، ح 892 .
(19) بهجة المجالس لابن عبد البر ، ج1 ، ص115 .
(20) أخرجه الحاكم : ج2 ، ص375 ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .
(21) انظر : الأشباه والنظائر للسيوطي ، ص60 .
(22) البخاري مع الفتح ج3 ، ص36 ، ح 1150 .
(23) مسلم م1 ، ص543 ، ح 787 .
(24) انظر : البخاري مع الفتح ج2 ، ص7273 ، ح 599 .
(25) فتح الباري ج2 ، ص73 .
(26) ابن ماجة م2 ، ص1403 ، وقال الألباني في صحيح الجامع ، ح 7321 : صحيح .
(27) أحمد : ج5 ، ص86 .

(28) أبو داود : ج5 ، ص273 ، ح 5003 ، وقال الألباني في صحيح الجامع ، ح 7454 : حسن .
(29) أحمد ج5 ، ص5 وقال الألباني في صحيح الجامع ، ح7013 : حسن .
(30) انظر : تفسير ابن كثير ، ج3 ، ص36 .
(31) مسلم م4 ، ص1711 ، ح2172 .
(32) مسلم م3 ، ص1699 ، ح2159 .
(33) البخاري مع الفتح ج10 ، ص51 ، ح5590 .
(34) مسلم م4 ، ص1770 ، ح 2260 .
(35) الترمذي ج4 ، ص210 ، ح 1708 وقد رواه مرسلاً عن مجاهد (ح 1709) وحكى أن المرسل أصح ، وكذا قال المنذري في مختصر السنن ج3 ، ص 391 ، وضعف الألباني المرفوع في ضعيف الجامع ، ح6049 .
(**) في القاموس المحيط : التحريش : الإغراء بين القوم أو الكلاب وذلك بتدريبها على ما يشبه المصارعة بهدف التسلي بذلك .
(36) مسلم م3 ، ص1549 ، ح1957 .
(37) البخاري مع الفتح ج10 ، ص393 ، ح 5963 .
(38) أحمد : ج2 ، ص310 ، وقال الألباني في صحيح الجامع ، ح7312 : صحيح .
(39) ابن حنبل حياته ، وعصره ، وآراؤه الفقهية لأبي زهرة ، ص314 .
(40) أحمد : ج1 ، ص313 ، وقال الألباني في صحيح الجامع : ح7517 : صحيح .
(41) الأشباه والنظائر للسيوطي ، ص105 ، والأشباه والنظائر لابن نجيم ، ص 121 .
(42) الوجيز في القواعد الفقهية للبرنو ، ص85 .

خواطر في الدعوة

جمال الكون

محمد العبدة

إن ما كتبه ابن تيمية في سفره الكبير (درء تعارض العقل والنقل) كان لحل مشكلة كبيرة في تربية وتكوين شخصية المسلم ، لأن الفصل بين العقل والنقل يحدث شروخاً وتشوهات في طبيعة التفكير ، فإن الوحي للعقل كالنور للبصر ، فما فائدة أن يكون الإنسان مبصراً والظلام من حوله يلف الكون ؟ ! ، وشبيه بهذا أيضاً : مَنْ يفصل بين آيات الكون المنظور وآيات الكتاب المسطور ، فإذا كانت غاية الخلق العبودية التامة لله (تعالى) ، فإن من كمال التربية انسجام الوسائل والغايات ، فقيام العقل بوظيفته المقدرة له وسيلة ، والتناغم مع الطبيعة المُسخّرة للإنسان وما فيها من إبداع وجمال وسيلة أيضاً ، وقد أمر الله (تعالى) في كتابه بالنظر في آيات الأنفس والآفاق ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق : 5] ، كما نبه القرآن إلى هذا الكون وما فيه من جمال ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر : 16] ، ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا

جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ [النحل : 5 ، 6] ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ
وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ [النحل : 8] .
ثم جاءت السنة لتربي المسلم على الانسجام مع هذا الكون ، فعندما سئل
رسول الله عن الرجل يعجبه أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسناً قال : إن الله يحب
الجمال .. [1] وكان يغير الاسم القبيح والمنظر القبيح .
وجاء العلم الحديث ليكشف أن الجمال من تركيبة هذا الكون ، وأن ما قاله
علماء القرن التاسع عشر من أن المادة ليس لها إلا خواص كمية كالوزن والحجم
والعدد ليس صحيحاً ، وجاء العلم الحديث ليقول : إن أي نظرية أو فرضية نرى
فيها الجمال فإننا نتأكد أنها أقرب للصواب لأنها جزء من الكون . فالجمال في
النظرة الجديدة : وسيلة من وسائل اكتشاف الحقيقة العلمية [2] ويتساءل العلم
الحديث مستنكراً على العلم المادي الإلحادي : هل تستطيع آليات الطبيعة أن تفسر
جمال النُدف الثلجية ، أو زبد البحر ، أو غروب الشمس ، أو زخرفة ريش
الطيور ؟ [3] ، إن الجمال في الفيزياء هو السمة الغالبة ، فالتجربة تخطئ في الغالب والجمال قلما يخطئ ، وقد كان الرياضي و الفيزيائي هرمان فيل مقتنعاً بأن نظريته في القياس لا تنطبق على الجاذبية ، ولكن نظراً لكمالها الفني ، لم يرد التخلي عنها ، وقد تبين بعد ذلك بوقت طويل أن نظريته تلقي ضوءاً على ديناميكا الكم الكهربائية ، فجاء ذلك مصداقاً لحسه الجمالي [4]
ويقول عالم الرياضيات والفيزياء هنري بوانكاريه : لأن في البساطة والضخامة كلتيهما جمالاً ؛ فنحن نؤثر البحث عن حقائق بسيطة وعن حقائق كبيرة [5]، ويعلن أينشتاين أنه: لا علم من غير الاعتقاد بوجود تناسق داخلي في الكون [6] . وأكتفي بهذه النقول من الفصل الممتع (الجمال) ، وأتمنى أن يقرأ العلم الجديد مَنْ في قلبه مرض من الذين يتابعون إلحاد العلم القديم ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ؟ ! .

---

(1) الألباني : صحيح سنن الترمذي : ج2 ، ص193 .
(2) العلم في منظوره الجديد تأليف : روبرت أغروسي ، جورج ستانيو ، سلسلة عالم المعرفة ، ص46 .
(3) المصدر السابق : ص71 .
(4) المصدر السابق : ص48 ، 49 .
(5) المصدر السابق : ص48 ، 49 .
(6) المصدر السابق : ص48 ، 49 .

سياسة شرعية

العلاقات والحصانات الدبلوماسية ..
في الفقه الإسلامي والقانون الدولي
(2)

بقلم : علي مقبول

في الحلقة الماضية ذكر الكاتب نبذة عن تاريخ التمثيل الدبلوماسيومفهومه ومراحل تطوره ، وذكر صورة التمثيل الدبلوماسي في صدرالإسلام ، ثم شرع في إيضاح الحصانات والامتيازات الدبلوماسية في القانون الدولي ، فذكر منها : الحصانة الشخصية للممثل الدبلوماسي ، والحصانة القضائية ، ويواصل الكاتب ذكر جوانب أخرى من الموضوع .

- البيان -

ثالثاً : عدم خضوع دار الوكالة ومحتوياتها للقضاء الإقليمي :

يقصد بدار الوكالة السياسية ومحتوياتها : مقر البعثة والمساكن التي تخصصها الدولة الموفدة لاستعمال البعثة .

ويلحق العديد من القانونيين بها : وسائل النقل التي تملكها أو تستأجرها البعثة ، فضلاً عن الحديقة وموقف السيارات .

وتتمتع كل هذه الأشياء بالحصانة ، وهذه الحصانة ذات شقين :

الشق الأول : خاص بحظر دخول السلطات العامة مقر البعثة ، وكذا : منع اتخاذ أي إجراء قضائي أو إداري داخلها ، ويشمل ذلك : القبض أو التفتيش ، أو الاقتحام ، أو الحجز ... ونحوها .

الشق الثاني : خاص بضرورة توفير كافة الإجراءات الملائمة لحراسة البعثة ، لمنع الجمهور من اقتحامها ، أو الإضرار بها ، أو الإخلال بأمنها ، أو الانتقاص من هيبتها ، بل تلتزم الدولة بأن تتخذ إجراءات أمن مشددة في أوقات الهياج أو الفتنة أو الاضطرابات الشعبية ، ومنع التظاهر أمام مقر البعثة حتى لا يؤدي إلى عدم الاطمئنان الذي قد يعوق قيام البعثة بواجباتها على النحو الأكمل [1] .

وقد أشارت المادة (22) من اتفاقية (فيينا) إلى هذه النقاط ، فنجد المادة تقول :

1- تكون مكانة مباني البعثة مصونة ، ولا يجوز لوكلاء الدولة المستقبلة دخولها دون موافقة رئيس البعثة .

2- على الدولة المستقبلة واجب اتخاذ جميع الإجراءات المناسبة لحماية مباني

البعثة ضد أي تدخل أو ضرر عليها ، وأن تمنع أي إخلال بأمن البعثة أو النيل من
كرامتها .

3- لا يجوز أن تكون مباني البعثة ، وأثاثها ، والأشياء الأخرى الموجودة فيها ، وكذلك وسائل النقل الخاصة بالبعثة .. محل تفتيش أو استيلاء أو حجز ، أو
إجراء تنفيذي .

وأيضاً مما يلحق بدار الوكالة : محتوياتها ، ووثقائها ، وتتمتع أيضاً كافة
محفوظات ووثائق البعثة الدبلوماسية بالحصانة ، أي : إنه لا يجوز التعرض لهذه
المحفوظات أو الوثائق أو كشف سريتها ، وطبيعي أن هذه الحصانة مكفولة
للمحفوظات والوثائق الموجودة في المقر في إطار الحصانة المقررة لهذا المقر ،
وتمتد تلك الحصانة كذلك إلى وثائق ومحفوظات البعثة الموجودة خارج المقر ، وقد
ورد النص على هذه الحصانة في المادة (24) من اتفاقية (فيينا) بقولها : تكون
حرمة المحفوظات والمستندات الخاصة بالبعثة مصونة دائماً أيّاً كان مكانها .

وهذه الحصانة مطلقة ، ولا يجوز التنازل عنها لأي سبب ، وتظل سارية في
حالة قطع العلاقات الدبلوماسية [2].

حق الملجأ : تثير حصانة مقر البعثة مشاكل واسعة حول حق البعثة في إيواء
الفارين من العدالة ، أو السماح باللجوء السياسي أو احتجاز بعض الأشخاص فيها .

فبالنسبة لحق البعثة في إيواء الفارين من العدالة ، نجد أن القانون والقضاء
الدوليين يرفضان الإقرار للبعثة بهذا الحق ، وذلك على أساس أن الحصانة لا تمتد
إلى أبعد مما تطلبه حماية العمل الدبلوماسي ، ويجب على رئيس البعثة أن يسلمهم
إلى سلطات الدولة ، وإن كان يمتنع على هذه السلطات أن تقتحم مبنى السفارة
للقبض على الفارين من العدالة ، وأقصى ما كانت تعمله الدول في مثل هذه الأحوال
هي أن تحاصر السفارة وتطلب تسليم المجرم .

ويوجد خلاف في القانون في جواز إعطاء حق اللجوء السياسي من جانب

البعثة ، ولا نجد خلافاً في هذا الشأن في نطاق دول أمريكا اللاتينية ، فهي تعترف
للبعثات السياسية بحق إيواء السياسيين ، كما تؤيد هذا الحق بالنص عليه أيضاً في
اتفاقية (مونتفديو) المبرمة بينهم عام 1933م [3] .

أما بالنسبة للدول الأخرى : فقد نازع الكثيرون في شرعية فكرة الملجأ
الدبلوماسي ، معللين رأيهم بمخالفته لمبدأ السيادة الأقليمية ، ولكن رغم هذا حصلت
له تطبيقات عديدة أثناء الحرب الأهلية الأسبانية ، وكذلك بعد الحرب العالمية
الأخيرة ، فقد لجأ رئيس وزراء هنجاريا السابق كيلاي إلى السفارة التركية في
(بودابست) في إبريل سنة 1944م ، وكذلك لجأ رئيس وزراء رومانيا السابق
روداسكو إلى السفارة الإنجليزية في (بوخارست) في السنة نفسها .

ومع غموض القواعد المتعلقة بالملجأ الدبلوماسي ، نجد أن اتفاقية (فيينا)
سنة 1961م ، لم تتناوله بالتنظيم ، واكتفت بالنص في المادة (41)
على عدم جواز استعمال مقر البعثة الدبلوماسية بطريقة تتنافى مع
وظيفة البعثة ، ونص المادة - كما في الفقرة (3) - : لا يجوز استخدام
مباني البعثة على وجه لا يتفق مع وظائفها المقررة في هذه الاتفاقية ،
والمفهوم أن هذا النص يمنع بطريقة ضمنية منح الملجأ الدبلوماسي [4] .

ومع ذلك يرى العديد من القانونيين ، وتدل السوابق القضائية على إعطاء حق
اللجوء إلى السفارة لأغراض إنسانية ، وذلك إذا ما خيف على المجرم السياسي من
اعتداء العناصر غير المسؤولة ، وإن كان ذلك لا يتضمن بحال منع الاختصاص
المحلي لسلطات الدولة ، وقد أقرت هذا الاتجاه محكمة العدل الدولية في حكم لها
صدر عام 1950م [5] .

وقبل أن أختم هذه النقطة أشير بلمحة موجزة عن حصانة الحقائب
الدبلوماسية ، وذلك لتعلقها بموضوعنا (الحصانات) خاصة وأن اتفاقية (فيينا) قد أفردت لها
أحكاماً خاصة بها ذات فائدة في هذا النطاق :

- الحقائب الدبلوماسية :

للبعثة الدبلوماسية أن تستخدم حقيبة دبلوماسية للبريد السياسي بينها وبين
الدولة الموفدة ، وقد دل العرف على تنظيم استخدامها ، وذكرتها اتفاقية (فيينا) في

موادها .

- مدلول الحقيبة الدبلوماسية :

تحتوي الحقيبة الدبلوماسية في العادة على المستندات والأوراق والأشياء المعدة
للأعمال الرسمية ، ويلحق بالحقيبة في الحكم : الطرود المغلقة والمختومة التي
ترسل من الدولة إلى البعثة والعكس ، ويجب أن يوضع على الطرود أو الحقيبة
علامات خارجية تدل على صفتها (المادة 27/4) .

- حصانة الحقيبة :

قررت اتفاقية (فيينا) حصانة الحقيبة ، ومنعت فتحها أو حجزها
(المادة 27/ 2) ، على أنه من الملاحظ أن هذه الحصانة قد يساء
استخدامها ، فقد تستخدم في التهريب ، أو حمل مواد ممنوعة ...
ونحوها ، فما هو الحكم في هذه الحالة ؟ وما الوسيلة الواجب اتباعها لو
اشتبهت الدولة المُوفَد إليها في أمر من هذه الأمور ؟ هل يجوز فتحها ؟

رفضت اتفاقية (فيينا) إقرار نص يفيد هذا المعنى رغم جهود العديد من
القانونيين في ذلك .

وللدولة التي تشك في أمر الحقيبة أمران :

1- إما منع دخول الحقيبة أصلاً .

2- أو فتحها بعد استئذان وزارة الخارجية ، وفي حضور رئيس البعثة
الدبلوماسية .

- حامل الحقيبة :

أطلقت عليه اتفاقية (فيينا) اسم الرسول الدبلوماسي ، وأضفت عليه حصانة
كاملة ، بشرط أن يكون حاملاً لمستند رسمي يدل على صنعته ، ويحدد فيه عدد
العبوات المكونة للحقيبة الدبلوماسية ، وقد ذكرت اتفاقية (فيينا) ذلك في
(المادة 27/ 5) بقولها :

إنه [حامل الحقيبة] أثناء قيامه بمهامه في حماية الدولة المعتمد لديها ، يتمتع
بالحصانة في شخصه .

ثم ذكرت المادة نفسها أيضاً أنه : لا يخضع لأي شكل من أشكال القبض أو
الحجز وتنتهي الحصانة الشخصية لحامل الحقيبة بمجرد تسليمها إلى المرسل إليه
(المادة 27/6) .

وأجازت الاتفاقية إرسال الحقيبة مع قائد طائرة تجارية ، ونجد المادة (
27/7)

توضح ذلك : يجوز أن تسلم الحقيبة الدبلوماسية إلى قائد طائرة تجارية ، ويجب أن
يهبط عند نقطة دخول مصرح بها ، كما يجب عليه أن يحمل وثيقة رسمية تبين عدد
الطرود التي تتألف منها الحقيبة ، غير أنه لا يكتسب صفة حامل الحقيبة ، ويجوز
للبعثة أن ترسل أحد أعضائها لاستلام الحقيبة الدبلوماسية من يد قائد الطائرة بطريقة
مباشرة وحرة [6] .

رابعاً : الحصانة المالية أو الإعفاء من الضرائب :

جرت عادة الدول إعفاء رجال السلك الدبلوماسي من الضرائب الشخصية
المباشرة ، وكذلك من دفع رسوم إلا ما كان منها مقابل خدمات فعلية
كالإنارة والمياه ، كما يعفى الممثلون الدبلوماسيون على سبيل المجاملة بشرط معاملة المثل من
الرسوم الجمركية .

ولقد احتوت اتفاقية (فيينا) سنة 1961م على تنظيم مفصل للإعفاءات المالية ، وذلك على النحو التالي :

قررت المادة (34) على أنه : يعفى الممثل الدبلوماسي من جميع الضرائب
والرسوم ، شخصية كانت أو عينية ، عامة ، أو إقليمية ، أو بلدية ، فيما عدا :

أ- ذلك النوع من الضرائب غير المباشرة التي تكون عادة في سعر البضائع
والخدمات .

ب- الضرائب والرسوم المفروضة على العقارات الخاصة الواقعة في إقليم
الدولة المستقبلة ، إلا إذا كان الممثل الدبلوماسي يضع يده عليها نيابة عن الدولة
المستقبلة من أجل أغراض البعثة .

ج- ضرائب التركات ورسوم الأيلولة التي تجبيها الدولة المستقبلة ، وذلك مع
مراعاة الفقرة الرابعة للمادة (39) .

د- الضرائب والرسوم على الدخل الخاص التي يكون مصدرها في الدولة
المستقبلة ، والضرائب التي تجبى من رأس المال الخاص بالتمويل للمشروعات
التجارية الواقعة في الدولة المستقبلة .

ه- الضرائب والرسوم التي تجبى مقابل خدمات خاصة .

و رسوم التسجيل ، والقيد ، والرهن ، والدمغة الخاصة بالأملاك الثابتة مع
مراعاة أحكام المادة (23) .

الإعفاءات الجمركية :

1- نصت اتفاقية (فيينا) أيضاً على أن تقوم الدولة الموفد إليها وفقاً لما قد
تضعه من قوانين وأنظمة بالسماح بدخول المواد الآتي ذكرها ، وبإعفائها من جميع
الرسوم الجمركية والضرائب والتكاليف الأخرى غير تكاليف التخزين والنقل
والخدمات المماثلة (المادة 36) :

أ- الأشياء المعدة للاستعمال .

ب- الأشياء الخاصة بالاستعمال الشخصي للممثل الدبلوماسي وأفراد أسرته
الذين يعيشون في كنفه ، بما في ذلك الأشياء اللازمة لإقامته .

2- تعفى الأمتعة الشخصية للممثل الدبلوماسي من التفتيش ، مالم توجد قرائن
جدية تبرر إمكانية احتوائها على أشياء لا تشملها الإعفاءات المقررة في الفقرة
الأولى من هذه المادة ، أو أشياء يحظر قانون الدولة المستقبلة استيرادها أو
تصديرها ، أو تخضع لأنظمة الحجر الصحي ، ويجري مثل هذا التفتيش في
حضور الممثل الدبلوماسي أو مندوبه الرسمي [7] .

وهكذا حددت اتفاقية (فيينا) حدود هذه الإعفاءات المالية ، ولكن السؤال المهم
في هذا المجال هو : هل التزم الممثلون الدبلوماسيون بهذه الحدود ؟

الواقع أن ما يسمع به الناس اليوم ، وما يرونه من إساءة استخدام المبعوثين
الدبلوماسيين لهذه الإعفاءات بلغ من الكثرة بحيث أصبحت تتزايد خطورتها يوماً
بعد يوم .

فالحقيقة : أن كثيراً من المبعوثين الدبلوماسيين أساؤوا استعمال حقهم في
الامتيازات المالية ، وظهر على المسرح الدولي كثير من عمليات التهريب التي
نفذت بمعرفة هؤلاء الدبلوماسيين ، كما أن بعضهم أساء استغلال الإعفاءات
الجمركية [8] وعدم تفتيش أمتعتهم ، واستغلوا هذه الحصانات في إدخال أشياء
ممنوعة ، وهناك الكثير من قضايا تهريب المخدرات وغيرها من أفلام ومجلات
هابطة ضبطت في حوزة هؤلاء الممثلين الدبلوماسيين ، ولا نطيل بذكرها

لشهرتها [9] .

---

(1) النظم الدبلوماسية والقنصلية ، د جعفر عبد السلام ، ص 117 -118 .
(2) لقانون الدولي العام ، د إبراهيم محمد العناني ، ص 287 .
(3) انظر : النظم الدبلوماسية والقنصلية ، د جعفر عبد السلام ص120 .
(4) انظر : مبادئ القانون الدولي العام ، د محمد حافظ غانم ، ص 585 .
(5) انظر : النظم الدبلوماسية والقنصلية ، مرجع سابق ، ص 120 .
(6) راجع : النظم الدبلوماسية والقنصلية ، د جعفر عبد السلام ، ص 122 ، العلاقات الدبلوماسية والقنصلية ، د عدنان البكري ، ص 129 ، الدبلوماسية الحديثة ، د سموحي فوق العادة ، ص 290
(7) انظر : العلاقات الدبلوماسية والقنصلية ، د محمد حافظ غانم .
(8) سلطات الأمن والحصانات والامتيازات الدبلوماسية ، د فاوي الملاح ، ص 219 .
(9) انظر : الكثير من الأمثلة على ذلك في المرجع السابق ، ص 329 وما بعدها .

هموم ثقافية

رؤية إسلامية لـ : إشكاليات مفهوم الديمقراطية

بقلم : سامي محمد صالح الدلال

الديمقراطية كلمة أجنبية ، جرى عليها قلم التعريب ؛ فهي في لغة قومها
Democracy ومعناها : السيادة للشعب ، وتطبيقها العملي يعني : أن يحكم
الشعب نفسه بنفسه عن طريق ممثلين له في مجلس ينتخبه يطلق عليه : (مجلس
الشعب) أو (مجلس الأمة) أو (المجلس النيابي) أو غير ذلك من الأسماء المعبرة عنه .

ولا أريد أن أتكلم هنا عن الغور التاريخي الذي تبلورت من خلاله الديمقراطية
المعاصرة ، كما إنني لا أريد أن أفضّل في أنواع الديمقراطية ، سواء أكانت سياسية
أو غير سياسية ، ولكن أريد أن أشير إلى أهم المعاني التي ينطوي عليها مفهوم
الديمقراطية ، وذلك من خلال الإشكاليات التي تغلف أزمة تبعث ذلك المفهوم في
أوساط الداعين إليها .

وسيكون حديثي من خلال الإشارة إلى ست إشكاليات ، تتضمن كل منها عناصر متعددة :

الإشكالية الأولى :

مبادئ الديمقراطية :

طالما أن المحصلة النهائية للإيقاع الديمقراطي هي حكم الشعب
بالشعب ، فإن متطلبات ذلك تدفع إلى السطح بأربعة عناصر رئيسة تؤلف
فيما بينها النغم الأخير .

- العنصر الأول (الحرية) :

إن الحرية في المجتمع الديمقراطي تتعدى كثيراً ذلك التقييد الذي ذكره الدكتور
علي الدين هلال في بحثه المعنون (مقدمة الديمقراطية وهم الإنسان العربي
المعاصر) عندما حصرها بقوله : الحرية ، أي : احترام الحريات المدنية والسياسية
للمواطنين ؛ الحريات المدنية مثل : الحريات الشخصية ، وحرية الانتقال ،
والزواج .. والحريات السياسية مثل : حرية التعبير والرأي والحق في الاجتماع والتنظيم .. [1] .

إن جميع ما ذكره منطو في مفهوم الحرية في المجتمعات الديمقراطية ، لكن
المفهوم الشامل عند أصحابها أعمّ من ذلك ؛ فهي حرية مطلقة ، لا يقيدها دين
سماوي ، بل تسورها قوانين أرضية غير متفق على نصوصها ، فهي أسوار
متحركة ، لها مسارات متعرجة بحسب البلاد والمجتمعات .

وعندما تكون الحرية مبتوتة التحديد عن دين الله الذي هو الإسلام ، فإن تقييد
إطلاقها سيكون خاضعاً لعقول البشر وأهوائهم ، ومن هنا : ستختلف معاني الحرية
بحسب ذلك ، وبناء عليه : فإن مفهوم الحرية في النظام الاشتراكي مغاير لمفهومها
في النظام الرأسمالي ، وفي داخل المنظومة الاشتراكية : فإن مفهومها في الصين
مثلاً قد تراه مغايراً لمفهومها في كوبا ، ومثل ذلك يقال في إطار النظام الرأسمالي ،
فإن مفهوم الحرية في فرنسا مثلاً قد تراه مغايراً لمفهومها لدى ألمانيا ، ويعود سبب
اختلاف المفاهيم إلى تراكم ظروف حياتية وموضوعية أدت في النهاية إلى صياغة
قوانين متغايرة ، سواء في إطار المنظومات العقدية (كالاشتراكية والرأسمالية) ، أو
في إطار مكوناتها (أي : الدول التي تنتظمها) .

وبسبب ذلك : فإن ممارسة الحرية في تلك الدول أو المجتمعات لن تكون
بالقدر نفسه .

إلا أن القاسم المشترك بينها جميعاً هو انبتاتها عن التقييد الرباني ، فالحرية
الجنسية والحرية الاقتصادية والحرية السياسية والحرية الثقافية والحرية الاجتماعية

والحرية الفكرية والعقدية : جميع تلك الحريات وغيرها هي حريات يطلق للشعب
أسلوب التعبير عنها ، كل بطريقته وذلك من خلال الأطر التي يضعها ممثلوه
المنتخبون .

إن مهمة المجلس النيابي في الظاهر هي إيجاد الأوضاع التشريعية التي من
خلالها تُمارس الحرية المنوه عنها بما يكفل المصلحة لأفراد الشعب ، وبما أن مفهوم
الحرية ليس محدداً وموحّداً لدى أولئك الممثلين للشعب ، فإن الصيغة النهائية ستكون
محصلة تغلّب أصوات أصحاب مفهوم معين على أصوات أصحاب مفهوم آخر ،
وحتى تلك الصيغة النهائية لن تكون سوى حلول وسط لدى أصحاب المفهومين ،
وكل ذلك ليس بالضرورة أن يكون معبراً عن وجهة نظر الشعب .

ولما كان الأمر يغذ السير في هذا الاتجاه ؛ فإن مفهوم الحرية لن يبقى ثابتاً ،
سواء لدى الأفراد ، أو المجتمعات ، ومع تطور أو تغير مفهوم الحرية تتطور أو
تتغير المفاهيم الديمقراطية ، ومثال ذلك : ما ذكره الدكتور إسماعيل صبري عبد الله
في بحثه المعنون
(المقومات الاقتصادية والاجتماعية للديمقراطية في الوطن العربي)، إذ
قال عن تطور مفهوم الديمقراطية الغربية : كانت أولى خطواته : هي حق
تكوين النقابات ، ثم الأحزاب ، وظل هذا الحق مرفوضاً في فرنسا بالذات إلى ما
قبل مائة عام . الخطوة الثانية كانت : حق الاقتراع العام ، وهذا المبدأ لم يسر
بصفة عامة إلا في نهاية القرن الماضي وأوائل القرن الحالي . الخطوة الثالثة في
ذلك كانت : الاعتراف بالحقوق السياسية للمرأة ، وهذا حدث قريباً جداً ؛ في فرنسا
لم تنل المرأة الحقوق السياسية إلا بعد الحرب العالمية الثانية ، سويسرا ما زالت لا
تعطي للمرأة الحقوق السياسية حتى الآن . الخطوة الرابعة كانت : الاعتراف بحق
الأحزاب وبحق العمال في التأمينات الاجتماعية ، وبالذات التأمين ضد البطالة [2] .

وكما أن الحرية الفردية المبتوتة عن الإطار الإسلامي غير متفق على تحديد
أبعادها لدى الديمقراطيين ، مما أعطاها صفة الإطلاق عند النظر إليها من حيث
العموم ، فإن الحرية بمعناها الأشمل تتوفر لها هذه الخصائص نفسها [3] في
المساحة الجماعية التي تمثل الحرية الفئوية .

ففئة العمال لهم فهم للحرية ليس بالضرورة أن يتطابق مع فهم فئة الموظفين
لها ، ومثل ذلك يمكن أن يقال عن فئة الفلاحين ، وعن فئة المثقفين ، وعن فئة
السياسيين .. وهكذا .

ومن هنا : تتبنى كل فئة إطاراً يُعبّر عن فهمها للحرية تتحرك من خلاله ،
فانبثقت من مضامين هذا التصور مسميات منوعة هي عناوين معروفة لتلك
الفئات ، مثل : النقابات ، والأحزاب ، والهيئات ، واللجان ... وسواها ، تتوسّم كل فئة أن
تمارس فهمها للحرية تحت شعار عنوانها .

ونظراً لأن هذه الحرية لها صفة الإطلاق : فإن كل فئة تنزع إلى توسيع دائرة
حركتها في تلافيف تلك الصفة المطلقة لمفهوم الحرية بما يجعلها تتجاوز مساحاتها
إلى مساحات الفئات الأخرى ، فيقع الصدام الذي تنشأ عنه طاقات شعورية وعاطفية
لها منحى الدفع باتجاه التوسع على حساب الآخرين مما يسبب ضحايا بشرية
ومادية ، والتي مهما عظمت فإنها تبقى دون الآثار السلبية المترتبة على الشقاق والافتراق ،
مما يؤدي إلى بعثرة الأمة وإضعافها باسم ممارسة الحرية ! ! .

ومن هنا : فإن عنصر الحرية الذي هو المبدأ الأول في الديمقراطية ، عندما
ننظر إليه من خارج المنظور الإسلامي نراه متردّياً في إشكاليتين رئيستين :

إشكالية تحديد مفهومه في مجالاته الفردية .

إشكالية تحديد مفهومه في مجالاته الجماعية .

إن مجرد وجود هاتين الإشكاليتين كاف لجعل الريح تهوي بالديمقراطية إلى
مكان سحيق ! ! .

- العنصر الثاني (المساواة) :

ولها وجهان (إفرازي) و (تنفيذي) ، ولكل وجه ما يناسبه من المناقشة
والتحليل .

الوجه الإفرازي : وهو الوجه الذي من خلاله يُفرَز النواب الناجحون في
الانتخابات فيدلفون المجلس ، وبموجب المساواة : فإن جميع الناخبين بغض النظر
عن مستوياتهم الثقافية وخبراتهم الحياتية لهم وضع متساوٍ في الإدلاء بأصواتهم
لصالح مرشحيهم ، ولكل فرد صوت واحد فقط ، إما لصالح مرشح واحد أو لصالح
قائمة من المرشحين . وفي هذه الحالة يتساوى صاحب شهادة الدكتوراة العلمية مع
العامي الجاهل الذي لا يعرف كيف يتوضأ ، في إدلاء كل منهما بصوته لصالح
مرشح أو قائمة مرشحين ! ! ويتساوى العالم الفاضل التقي مربي الأجيال في الإدلاء
بصوته مع بنت الهوى التي تعرض مفاتنها في الملاهي الحمراء ، ويتساوى
الإداري صاحب العقل المنظم وواضع برامج التعليم أو التنمية في الإدلاء بصوته
مع جامع القمامة الأمي ، ويتساوى مدير المدرسة أو رئيس الجامعة في الإدلاء
بصوته مع الطالب الناشيء الذي يدرّسه . وعندما تفرز الأصوات ربما يفوز مرشح
بسبب صوت أدلى به الأمي على مرشح آخر جلّ أصوات ناخبيه من المثقفين .

ففي هذه الإشكالية أطاحت مساواة الأصوات بأهمية ثقل الكفاءات .

ثم نُيمّم وجوهنا شطر ناحية أخرى ، وهي انعدام المساواة في قدرات
المرشحين في دعاياتهم الانتخابية ، فربّ صافق في الأسواق لا يكاد يخط اسمه
يفوز بعضوية المجلس على حساب مربّ عريق بسبب تفاوت القدرات المالية ،
وأحياناً ربما بسبب الانتماءات الحزبية أو التعصبات القبلية ، فهذه إشكالية أخرى
إزاء دعوى المساواة ! ! .

الوجه التنفيذي : وهو الوجه الذي يكتسب من خلاله النواب واجهات اجتماعية
ومواقع نفوذية بحكم موقعهم ، لا بحكم القانون ، ففي الواجهة الاجتماعية قد يلقى
النائب الأمي من الترحاب في المجالس والدوائر الحكومية والمؤسسة الشعبية ما لا

يلقاه العالم الجليل المجتهد أو صاحب رسالة الدكتوراة المتفوق صاحب الأبحاث
والدراسات ، لا لشيء سوى لأن الأول نائب في مجلس الشعب والآخر ليس كذلك ،
بل الأنكى من ذلك : اندفاع الناس لتنفيذ أوامر ذلك النائب الأمي ، وأحياناً لا تكون
أوامر بل إشارات ، بمقابل عدم اكتراث أولئك الناس بحضور العالم مجلسهم ،
فضلاً عن أن يصدروا عن أمره ! ! .
وأما من ناحية النفوذ : فإن أتباع النائب وأنصاره يحظون بالمكاسب المادية
الناشئة من توليهم الإدارات ومراكز متقدمة سواء في الحكومة أو الشركات ، أو
الناشئة من استلالهم لأحقية تنفيذ المناقصات ذات الأرقام الفلكية ، أو من تمكنهم من
اصطناع أفكار وهمية يجسدونها بمؤسسات اقتصادية يجعلونها غطاءً لابتزازاتهم
المالية ... وهكذا .
إن جميع ذلك مقتصر على حضرات النواب أو من كان في حكمهم كالوزراء ، دون غيرهم ولو كانوا علماء فضلاء أو عاملين نجباء .
إن الديمقراطية تقف عاجزة إزاء حل إشكالية لعنصر من أهم عناصرها ،
وهو عنصر المساواة .

- العنصر الثالث (التمثيل النيابي) :

على أعتاب التمثيل النيابي تتصارع الأهواء ، تارة لابسة لبوس الحق أو
ملتبسة به ، وتارة متدرعة بالأفكار الزائفة والآراء الباطلة ، التي يخيل لمستمعيها
من سحر بهرجة إعلام الداعين إليها ، أنها نور يتلألأ يضيء الظُلمة ، أو ماء
رقراق يروي غليل العطشان ! ! إلا أنّ انبلاج الأمر يسفر عن زيف هذا وذاك
معاً ! ! . وهذا لا يقحمنا في إشكالية واحدة ، بل يزجّ بنا في حقل إشكاليات ، هذه بعض مظاهرها وأنواعها :

1- ممارسة الحق الإلهي : إن نواب المجلس النيابي يمارسون التشريع على
وجه الاستقلال عن أي قيد يحدّ من ذلك ، وهم يفعلون هذا ضمن صلاحياتهم
الممنوحة لهم من الدستور ، والتي بموجبها يُحِلّون ما يشاؤون ويحرمون ما
يشاؤون ، مما ليس فيه حق للبشر ، إذ إن التحليل والتحريم حق خاص لله (تعالى) ، ففعلهم

ذاك هو ممارسة لحق إلهي ينقض عقيدة لا إله إلا الله ، ويحل محلها عقيدة : لا إله
إلا المجلس النيابي ! !

2- الأقلية والأغلبية : وينظر إليها من زاويتين : (عامة) و (خاصة) .

فأما العامة : فإن نواب المجلس عند التحقيق لا يمثلون أغلبية الأمة بل يمثلون
أقليتها ؛ فالمجلس لا يصل إلى عضويته إلا من كان غنيّاً ، بنفسه أو بقومه ، ولو
كان جاهلاً أو سفيهاً ، أو كان وجيهاً بنسبه أو بصدارته قبيلته أو عشيرته أو طبقته
أو فئته ، ولو كان صاحب هوى أو فكر منحرف ، أما المتوسطون من الشعب وهم
الأغلبية الحقيقية فلا ممثل لهم .

وأما الخاصة : فإن تشريعات المجلس تصدر بالأغلبية النيابية ، وعند إعمال
النظر النزيه يتضح جليّاً أن النجاح سيكون حليف القضية المعروضة إذا كانت
مكرسة لمصالح الأغلبية المجلسية ، ومشتتة أو ملغية لمصالح المعارضين .

3- الاستمرار والحل : قرار استمرار عمل المجلس النيابي أو حَلّه يقبض
على مفتاحه رئيس البلاد ، الذي هو في الواقع رأس هرم مراكز القوى فيها ، إن
لعبة شد الحبل بين المجلس والحكومة (وهي التي تمثل مراكز القوى إما بأشخاصها
أو برئيسها) تتم غالباً من جانب واحد . وعندما يشد المجلس الحبل في اتجاهه
فيصوبه إلى الخط الأحمر يصدر فوراً قرار الحل .

وتعاد اللعبة من جديد ! ! وفي الدول الإسلامية ذات النظام الديمقراطي فإن
الخط الأحمر غالباً ما يتمثل باختلال توازن تشكيلة المجلس بما يمكّن من تمرير
المطالبة بتحكيم الشريعة الإسلامية ! ، إن هذه الإشكالية واحدة من الصخور الصلداء
التي تتهشم على نتوءاتها جهود الإسلاميين النيابيين التي يهدرون زمناً طويلاً في
حشدها بغية تحقيق الحلم المتمثل في الوصول إلى تحكيم شرع الله من خلال
المجلس النيابي ! ، ومن المؤسف أن نقرر أن الإشكالية البارزة هنا هي : أن أولئك
الإسلاميين لم يدركوا بعد أنهم يحرثون في الهواء ويزرعون بذور الوهم ، فهل

سيحصدون سوى الخواء ! !
4- الجزئية الكلية : إن مسحاً شاملاً لمكونات شعب من الشعوب سيظهر فيه
عدداً من الأديان والطوائف والقبائل والمهن والطبقات والأجناس وغيرها ، وكل
واحدة من هذه المكونات تتألف من شعب وبطون وأفخاذ واختصاصات وأعراق ،
منها كلها أو من بعضها ، وإن المجلس النيابي مهما كان الإعداد له دقيقاً فإنه يقصر
عن إيجاد الصيغة العادلة للتمثيل الكلي لتلك المكونات ، ولذلك : فإن حقيقة ذلك
المجلس لا تتجاوز تمثيل أجزاء من تلك المكونات من استيفاء دعوى الكلية ، مما
يحمل في طياتها معنى البهتان ، ويُلحق بها وزر الافتئات .
5- قصور التخصصات : ما إن ينعقد المجلس النيابي حتى يشرع في تكوين
لجانه المختلفة ، ولكل لجنة تخصص محدد ، ويخضع تعيين أعضاء كل لجنة في
الغالب إلى مزايدات الأحزاب والفئات التي يتشكل منها المجلس ، وقد يحدث أحياناً
أن يكون جميع أعضاء اللجنة ليس بينهم نائب واحد يحمل التخصص الموكول لتلك
اللجنة تمثيله ! ! مما يؤدي إلى استعانة اللجنة برجال متخصصين من خارجها ! ! .
6- انخفاض المستويات : بما أن المجلس النيابي يضطلع بمسؤوليتي الرقابة
والتشريع ، فإنه بحاجة إلى مستويات ثقافية ذات ارتقاء تخصصي وخبرة تنفيذية
تمكنه من أداء دوره ، إلا أن الانتخابات النيابية بأساليبها الالتفافية تدفع إلى كراسي
المجلس بتشكيلة عجيبة ، بينهم من لا يعرف كيف يكتب اسمه ومن لا يحسن سوى
بيع بعض الخضروات ، فما هو دور هؤلاء البسطاء في الرقابة والتشريع ؟ ! ،
وإذا ادعى بعض الإسلاميين أنهم سينجحون في تمرير التشريعات الإسلامية من
خلال : المجلس فكيف يكون هذا ومعظم إن لم يكن كل تخصصات النواب لا علاقة
لها بالشريعة ولا يعلمون شيئاً عن أصول التشريع الإسلامي ؟ ! .
7- العام والخاص : رغم أن عضوية المجلس النيابي تكليف لأداء العمل
العام ، فإن كثيراً من أعضائه يبتزونه لصالح النفع الخاص ، إما لهم أو لأقاربهم أو

لقبائلهم أو لمعارفهم ، ويتم ذلك كله في إطار القانون والحصانة البرلمانية ، وبالتالي : يتحول أداء كثير من النواب من الخدمة المؤسسية إلى المصلحة الشخصية .

8- ضياع مصالح الأمة : ما إن يسند أعضاء المجلس النيابي المنتخب
ظهورهم إلى كراسيهم المجلسية الوثيرة ، حتى يبدأ تشكيل الدوائر الشللية ، سواء
حزبية أو قبلية أو مصلحية ، وكثيراً ما يرتفع صراخ المهاترات ويتراشق الجميع
بالاتهامات ، وتحتدم المعارك الصوتية وتعلو النبرات وتنتفخ الأوداج ، وكأن قاعة
المجلس ساحة حرب ، (صبّحكم مسّاكم) فإذا حمي الوطيس رأيت كراسي تطير في
الهواء وقبضات تتوجه نحو الوجوه ، وأخذاً بالتلابيب ورشقاً بالأحذية (كرمكم الله)
مما يستدعي تدخل الآخرين لفك الاشتباك بعد أن استبد بالجميع الإنهاك ! ! فكيف لا
تضيع مصالح الأمة في خضم أمواج تلك الخزعبلات ؟ ، وقد شاء الله أن أرى
واحدة من تلك المسرحيات ، أقصد الجلسات ، منقولة على الهواء مباشرة عبر
قنوات التلفزيون في إحدى البلاد الإسلامية .

9- التسرّب والتسريب : تعتبر المجالس النيابية فرصة لا تعوض يستغلها
أعداء الأمة لتسريب عملائهم بشكل قانوني ، ومن خلال انتخابات معترف بها محليّاً
ودوليّاً إلى تلك المجالس ، ومن خلال أولئك النواب المسرّبون تتسرب جميع أسرار
الدولة إلى أعدائها دون أن يتجرأ أحد على اختراق الحصانة البرلمانية لإيقاف تلك
المهزلة ! ! بل يستطيع أولئك المسرّبون أن يؤثروا على قرارات الدولة لصالح
أسيادهم ! ! .

10- استغلال المنبر المجلسي : يتخذ أصحاب الأديان والطوائف من المجلس
النيابي منبراً يدعون من على أعواده لأديانهم وطوائفهم ويستعملونه ستاراً لتمرير
ودعم أتباعهم وأنصارهم ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وهكذا تتمكن مؤسسات
تلك الأديان والطوائف من الاستفادة من مؤسسات الدولة والقطاع الخاص بما تلاقيه
من تغطية نيابية محصنة .

11- الهاجس ! ! : إن تحليلاً دقيقاً لتصرفات معظم نواب المجالس النيابية
سيشير بما لا يدع مجالاً للشك أن هؤلاء النواب يباشرون أعمالهم المجلسية وفي
نفوسهم هاجس الترشيح للانتخابات القادمة ، ولذلك فإنهم يدرسون تصرفاتهم
ويوجّهونها بما لا يؤدي إلى وقوفها عائقاً دون آمالهم النيابية المستقبلية ، إن هذا
الهاجس قد يجعل بعض النواب يقفون حجر عثرة أمام مشاريع القرارات التي يعيق
تأييدها احتمال فوزهم في المجلس المقبل ، حتى وإن كانت تلك المشاريع
المعروضة على المجلس فيها مصلحة للأمة وتوطيد لكيانها .

12- الانتهازية : تسعى بعض الأنظمة إلى عرض الوزارة على بعض
الفائزين في الانتخابات ، وهنا ينتهز النائب الذي تعرض عليه الوزارة الفرصة
للمفاضلة بين أيهما ألمع جاهاً وأوسع كسباً ، آلوزارة أم النيابة ؟ ، فأيهما رجحت
في ذهنه كفتها بادر باختيارها ، وأحياناً تكون الانتهازية حزبية وليست شخصية ؛
فيبادر الحزب الممثل في المجلس إلى دفع أحد أعضائه للمشاركة الوزارية أو
النيابية حسب ما تقتضيه مصلحته الحزبية .

13- التلوّن والبرمجة : إن كثيراً من المرشحين النيابيين يلوّنون أفكارهم
ويبرمجون تصرفاتهم بحسب ما يودّه منهم ناخبوهم ، فإن كان ذلك يقتضي منهم
الصلاة صلوّا ! ! ، أو الزكاة زكوّا ، أو العربدة عربدوا ! ! . إنهم يلبسون لباس
الجماهير ويكتحلون بلون كحلهم ! ! .

تلك كانت ثلاث عشرة إشكالية فرعية في موضوع التمثيل النيابي في المفهوم
الديمقراطي ، وكل واحدة منها كافية لهدم الهيكل وتقويض البناء ، فكيف لو أضفنا
إليها إشكالية الصراع بين النواب وبين الحكومة (التي تمثل مراكز القوى الحاكمة
والمسيطرة) ، وإشكالية دور الإعلام المحلي والوافد في صياغة توجهات الناخبين
وأفكارهم ، وإشكالية الدعم المالي والمعنوي الموجود والموعود الذي يدفع ببعض

المرشحين نحو الصدارة ، وغير ذلك من الإشكاليات الفرعية الأخرى ... لا شك أن
ذلك سيزيد الصورة قتامة ويكسي الواقع سواداً .

- العنصر الرابع (الواقع الدستوري) :

لم أقل الدستور ، بل قلت الواقع الدستوري ، وأقصد به الدستور وما يكتنفه
من ملابسات ، وتلفه من ظروف ، وتنجم عنه من إفرازات ، ومن أهمها :

1- مصلحة الزعيم : سواء أكان رئيساً أو غير رئيس .

فالدستور لابد أن يلبي مصلحة الزعامة ، وعلى الديمقراطية أن تكيّف أحوالها
لأداء خدمة تلك المصلحة ، وينبغي أن تصاغ بنود الدستور في ذلك الإطار ، فإذا
اقتضت مصلحة الزعامة حل المجلس يُحلّ ، وينبغي أن تلبي مواد الدستور تلك
الرغبة الزعامية ، وإذا اقتضت تجميده يجمّد ، أو إلغاءه يُلغى ، وكل ذلك بتغطية
دستورية . وإذا عجزت صيغ الجمل الدستورية عن القيام بتلك التغطية فإن الدستور
يُعدّل وينقح خدمة لعين الزعيم .

وفي بعض الأحيان لا يحتاج الزعيم لأي من هذا كُلّه ؛ فيدوس فوق الدستور
ويمضي قُدماً لتحقيق مصلحته ، دون أن ينسى القول : إن الذي فعله ليس إلا
لمصلحة البلاد وسعادة العباد ! ! .

﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر : 29] .

2- مزاج الزعيم : نعم مزاجه ! ! فالواقع الدستوري يخضع أحياناً لأمزجة
الزعماء وأهوائهم ، والزعيم ليس مطالباً بتبرير قراراته ، فقد جعله بعضهم في مقام
من لا يُسأل عمّا يفعل ! ! .

وإن استفسرت عن ألوان أمزجة أولئك الزعماء : فما عليك إلا النظر إلى
ألوان الطيف الضوئي وما يمكن أن يستجد من ألوان أخرى بخلط بعضها ببعض ،
فأمزجة الزعماء قد تبدأ باللجان الشعبية ، وتمر بمناجل الفلاحين ، واتحاد القوى
العاملة ، وأصناف النقابات ، وشعارات الأحزاب ، وكراسي مجلس الشعب .. وقد
تنتهي عند إشارات الدستور ومقتضياته ومفهوماته بل ونكهاته ، وقد لا تنتهي .

3- إرادة الدول الأجنبية : إن كثيراً من الدول الديمقراطية هي في الواقع في إطار النفوذ الأجنبي رغم علم الاستقلال الذي يرفرف فوق مؤسساتها الرسمية ، ويبقى موضوع استمرار الديمقراطية فيها أو إيقاف عجلاتها منوطاً بإرادة تلك الدول صاحبة النفوذ ، الذي له أوجه متعددة ، منها : النفوذ الاقتصادي ، والنفوذ العسكري ، والنفوذ السياسي .. وغيره من ألوان النفوذ ، وكل لون من تلك الألوان له حظه في التأثير على الصيغة النهائية للواقع الدستوري ، بما في ذلك القرار السياسي المتعلق بالعلاقات الخارجية ، أو القرار الداخلي المتعلق بالإجراءات الأمنية ، أو القرار الاقتصادي المتعلق بالميزانية العامة للدولة أو ...

4- تعليق الحريات : إن بعض الأنظمة عندما تريد بلورة الواقع الدستوري حسب رغباتها ومقتضيات مصالحها تلجأ إلى اعتقال المناوئين ومصادرة حرية كلمتهم أو تعليقها بما لا يسمح لهم بالمشاركة في الانتخابات الدستورية ، وبالتالي يفقدون فرصتهم المتاحة للوصول إلى المجلس النيابي ويتم تعليق الحريات المعارضة للنظام في إطار الدستور الذي ينص على أن الحريات الشخصية مكفولة في إطار القانون ، وهؤلاء المعتقلون قد خالفوا القانون ، أي النظام ، فلابد من تكميم أفواههم ووضع الأغلال في أيديهم ، ليهنأ الزعيم وينام على فراشه الوثير ! ! .

5- مراكز القوى : وهي جماعات الضغط التي ترى أن يُفصّل الدستور بما يحقق مصالحها ويُدعّم نفوذها ، كما أنها تتخذ من مظلة الدستور مواقع انطلاق في داخل المجلس النيابي وفي خارجه لحماية مكاسبها الذاتية ؛ ولذلك تراها تضع العراقيل أمام أي مشروع قرار يحول بينها وبين أهوائها ومطامحها الابتزازية ، وإذا فشلت نصوص الدستور في توفير تلك المظلة سعت جماعات الضغط إلى تنقيحه واستبدال بعض فقراته لتناسب تحقيق آمال وأهداف مراكز القوى التي تشمل فعاليات سياسية واقتصادية وعسكرية .

6- المحاباة : تلجأ بعض الفئات ، بصفتها الحزبية أو الشخصية إلى محاباة
وتملق النظام الحاكم ، إما بالدفاع عن دستوره أو بمؤازرة رموزه ، رغم أن ما
ترفعه من شعارات لا يسمح لها بهذا ولا بذاك . وللأسف إن هذا الوصف ينطبق
على بعض الجماعات الإسلامية أو الأفراد الإسلاميين المتورطين في حمأة المجالس
النيابية ؛ فرغم أن دستور بلادهم علماني ، مجافٍ للشريعة ، بل مضاد لها ، فإنهم
يدعون إلى احترام ذلك الدستور المضاد لتنزيل رب العالمين ولسنة خاتم المرسلين ،
محاباة للنظام ، ويتسامرون مع رموزه تملقاً لهم ، أو انتهازية منهم . وإذا أردنا
دراسة الواقع الدستوري والمؤثرات التي تحيط به وتبلور توجهات فهم نصوصه أو
تنقيحها فإنه لا يسعنا أن نغض الطرف عن إحصاء أصوات النواب المحابين
والمتملقين ! !

---

(1) كتاب الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي : ص10 ، مطبوعات مركز دراسات الوحدة العربية .
(2) المصدر السابق : ص111 .
(3) أي عدم تحديد الأبعاد .

البيان الأدبي

فاصلة أدبية

التحرير

لم يكن بدّ من البيان .. بعد أن عبّر مدادكم معشر القراء عن استقبالين
متقابلين ؛ فمنكم من أثنى على ارتفاع المستوى الفني للنصوص المنشورة في المجلة ،
وأبهجه ثمار البيان الأدبي الذي يختبئ شهراً إلا كمرور الكرام كي يجمع لؤلؤة من
عطاياكم ، ثم ينظمها في عقد ملفاته التي تبزغ عليكم شمسُها كلّ شهرين .. ومنكم
من يعتب على نشر شعر التفعيلة وتوظيف عدد من الشعراء للرمز في النص
الشعري ، ويرى أن في ذلك انحرافاً عن مسار البيان في البيان ! .. ونحن نقدركم
جميعاً ، ونحتفي بكم لا باعتباركم مرآةً تعكس ، ولكن بتمثلكم عقلاً مؤمناً يقبل
ويرفض ويوازن وينقد ، وذوقاً رفيعاً يتقرّى الجمالَ وهو أدرى به ، وأرضاً معطاءة

تحتضن بذرتَنا التي لوحتها الشمس والريح حتى اختزنتْ خصبها ! فتفضّ
مغاليقها، وتحيلها شجرةً باسقة الجذع ريانة الثمر .. ونقول
لكم مصارحين :
إننا لا نضيق بالأشكال الأدبية المعبرة عن نبض العصر مادامت
ملتزمةً
بالفصحى ، قادرةً على منح المعنى والرؤية ولو بعد مرات من القراءة
خصوصاً
حين تكشف كل قراءة منها عن عمق جديد محتشد باللآلئ ..
فقط نرفض العبثية والشكلية المحضة ، ونرفض الرؤى والرؤيا
المعوّقة
والمعوّقة .. نقبل التجديد الذي لا يعترضه نص شرعي صريح ، أو رأي
فقهي
صحيح ، وإننا لنطمح أن نجد نبض الأدب في جيل الصحوة سهاماً مجلية ،
تكون
امتداداً لنبل حسان (رضي الله عنه) وتمتلك مع ذلك أدواتِ عصرها الفنية
دون أن
تستأنسها فتنُهُ ، وتروضّها آلهتُهُ المزيفة .
إننا نؤمن أن جيل الصحوة وهو يغسل درن الجاهليات عن الأرض يقدم
البناء
الحضاري الشامل .. إنه لا يهدم أبنية الزيف وبيوت العنكبوت فحسب ،
ولكنه
ينشيء خلايا النحل ، ويعطي للناس عسلاً حلالاً ، وشفاءً من سقام
الجاهليات .. كما
أنه لا يقتلع شجر الغرقد ، ثم يسترخي على الرمال الخاوية ! ! بل
يملؤها حَبّاً
وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبّا ، ويجعل من كل ذلك مصاعد
للطاعة ،
وسبلاً مذللة لعبادة الله .
هذا هو الميناء الذي نطمح أن تنزل فيه مراكبنا الأدبية ، ولكننا ما زلنا
نتراآه
كالنجم الغائر ؛ ولذا : فنحن نقبل أحياناً ما يقل فنياً عن مستوى طموحنا
دون أن
نُسفّ هابطين ! ونحن نأمل أن نسلك درباً صعداً ، يزداد مع الزمن تألقاً
وعمقاً .
وأقلامكم أولاً وآخراً مصبّ السقيا لأحواض البيان الأدبي فهل تفيض
جوانحكم
بالينابيع ؟ !
ذاك أملنا الذي منحتمونا منه أول الغيث ، فلا كان غيثكم وسميّاً إلا في
نفعه ..

نص شعري

جغرافيا الّرقاب

د . صالح سعيد الزهراني

إلى صُنّاع الحياة ، وإلى الأغنياء بدرجة كافية جدّاً :

باسمِ تحرير مواليكَ ، يجيئون إليكْ !
في زُجاج العطر ، يأتون إليكْ ..
في نديف القطنِ ، في علبة ديتولٍ
وفي خلطة كيكْ !
تجد العاشق مجذوباً ، يغنّيكَ ..
مواويل السّليكْ
يخطف البسمة من عينيك ، يدعوكَ ..
بأحلى ما لديكْ ،
من تراتيل الهوى العذب ، يناديكَ :
أنا بين يديكْ
أنا أحنى منك يا قلبي عليكْ
باسم كشف السرّ عن خارطة الأموات دي جاما
وماجلان ، مدّا شهقة العاشقِ ..
فافتح ساعديكْ !
وعلى الأشرعة البيضاء رأس السندبادْ
و ابن ماجدْ ..
يرسم الدائرة الأولى لبيت العنكبوتْ ..
يرسمْ : المدخل ، والمخرجَ ، والأبعادَ ، صوتَ الرّيحِ ، هزّاتِ المداراتِ ،
المضيقاتِ ، مراسي الحزنِ ، وجهَ البحر ، أمواجَ السكوتْ .
يقذفُ الحبلَ على هامة صيادٍ فقيرْ
فينادي : يا ابن ماجدْ ..
كلّ ما أبغيه قوتْ !
فيُجيبُ البحر صمتاً ... لن تموتْ ...
يرتمي الموجُ سيوفاً ، يستدير البحرُ في عين ابن ماجدْ ..
أيها البّحارُ .. دوزن ناظريك
قف كما أنتَ ... / إليكْ
أيها الرّائد : أدرك قاتليكْ
قالها البّحارُ للبحر غناءً : لا عليكْ
قالها البحر ، و دي جاما يغنّي هاشمياتِ الكُميتْ

أتيت إليك مِلءُ فمي سُؤالٌ ... وبين جوانحي كُتبَ الجوابُ
تضيق الأرض في نظر الحُبارى ... ويأبى أن تضيق به العُقابُ
مددتُ يديّ ، مِلؤهُما اشتياقٌ ... ومن كفّيّ ينهمرُ السّحابُ
وتنكسر الرّياح على جبيني ... وتُنكر ضبَحها الخيلُ العِرابُ
هنا فوق الخريطة لُفّ حبلي ... وطُوّقت المآذن و الرّقابُ
كشفت رؤى الفجيعة عن فتوحي ... وعن تشكيلتي كُشف النّقابُ
إذا لم يكتب العلماءُ مجداً ... لأمتهم ، فعلمُهمُ سرابُ

سباعيات

أعمال .. ونيات ! ! !

شعر : د .محمد ظافر الشهري

لَكَ اللهُ يا أيها المسجدُ إذا سرّ شانئكَ المَشْهدُ
إذا داسَ رابينُ مستكبراً بأخفافه حيثما نَسجدُ
إذا ما سألنا بني جلدنا لماذا يبوسون رجل العتدو
لماذا أعانوه في حربه علينا ، فقالوا : لنا مقصد
فإنا نَبَرّهُمُ عَلّهُمْ إذا رأوا البِرّ أن يهتدوا
فلم أر أن اليهود اهتدوا ولكن أرى عرباً هُوّدوا
نلوم اليهود على ظلمهم ولوم بني جلدنا آكد

نص شعري

قراءة جديدة في دفتر ليلى

طاهر العتباني

كانت ليلى في تراث العرب الشعري : رمزاً للحب والعشق ، ...
والآن :
أصبح للبعض عشق جديد وهمّ جديد ، يملأ عليهم قلوبهم ، ويأخذ بمجامع
أرواحهم ... وفي هذه القصيدة قراءة جديدة لدفتر ليلى .

لـ ليلى بساتينها والجنانْ
ولي وَحْدي السُهْدُ ..
لي وَحْدي الوَجْدُ ...
والافتتانْ
وفي وجهها ...
حين يطلع من كل صوبٍ ...
على خاطري
دمعتانْ
وفي مقلتيّ اشتياقٌ ولفحٌ ...
وفي كلماتي حروفٌ ...
لها وَلَهٌ مُسْتَبِد ... وأنشودتانْ
لليلى الحَنَانْ
ولي سَهَرُ العاشقينَ ...
ولي ليلها ...
بَحْرُها ...
وليَ الشاطئانْ
لليلى المعاني الحِسانْ
لليلى القصيدةُ ...

حين يحاصرني شوكها ...
وليَ الطَلَلُ المشرئبّ ...
يخاطبني من بعيد الزَمانْ
لليلى الرحيلُ ...
ولي أن أوقّفَ كل الصحابِ ...
علي رَبْعِها ...
أغزل الدَمْعَ من مُقْلتيها ...
فَيَبْكي الحصانْ لليلى ...
ولي ... أن نموتَ ونحيا ...
على كل مفترقٍ في طريق الجِنانْ
الدَمْعُ يعزفني على أطلالها
فتروغ من أضلاعي الكلماتُ
والوَجْد يَسْهَرُ في شعاب جوانحي
فتهيمُ في وُجْداني الكلماتُ
والليل يتركني وحيداً في المدى
وتهدّني بحصارها الظلماتُ
والصُبْحُ يشرق بَعْد ليلٍ تائهٍ
فكأنما في ضوئِهِ عَزَماتُ
وإذا الضحى غمر الدروبَ ضياؤهُ
وانساب في أصدائه الصَدَحاتُ
فلقلبي المحبوسُ وَقْع قصيدةٍ
وبوجهها تتشكل الأبياتُ
لليلى انهمار الدموعِ ... على وجنتي
ولي مِحْنتي
ولي وقفتي .. بين هذي الطلولِ ..
ولي أنّتي
ولي في انبعاثِ النشيجِ ...
بأضلاعيَ الحرّةِ
نزيفٌ من القلق المستبدّ ...
وأنّةُ ليلٍ بقيثارتي
لليلى بكائي وأنشودَتي
لليلى التي .. وجهها في الفؤادِ ..
طريقٌ طويلٌ ..
وهذي الصفوفُ من الشهداء الأُلى أشعلوا عَزْمتي
لليلى .. مَرَرْتُ على كل بيتٍ ..
وَقَفْتُ على كل صَحْبٍ ...
هتفتُ على كل قلبٍ ...
وأترعْتُ من لهفتي
لليلى رحيلي ...
صهيلُ الحصانِ بصدري
ولي رَجفتي
ولي أن أسافِرَ ...

لا البيد يعرف وَجْهي
ولا الليلُ يُدْرك : ما غايتي
لليلى غيابي طويلاً ...
وراء الكهوفِ التي تُثرثْ ...
في مدى خطوتي
ولي مِنْحَةُ السائرينَ على الدربِ ..
لي خطوةُ الراحلينَ ...
إلى الجنّةِ
***
سيسألني الدربُ ... عند المسيرِ
لمن وِجْهتي
ويسألني الطيرُ ...
حين يحطّ على شجر الروحِ ...
حين يرفرف في مُقلتي
ويسألني البَحْرُ ...
حين أحطّ الرحالَ على شاطئيهِ ...
وحين أمدّ المجاديفَ ...
في عَرْضِهِ شامخ الهِمّةِ
لمن وجهتي ؟ !
لمن غنوتي ؟ !
لمن يتلظى اللهيبُ بقلبي ؟ !
لمن حرقتي ؟
لمن دَمعتي ؟
لمن سَهِرتْ كل هذي النجومِ . ؟ !
بصدري ؟
وطال ارتقاب الضياء ...
الذي سوف يشرق في حالكِ ...
الظلمةِ
سيسألني ...
كل ربعٍ وقفتُ عليه ...
وساءلتُ حصباءَهُ ...
رَمَلهُ
وهذي الظباء التي ترتع الآنَ ...
في مُهْجتي
لمن وقْفتي ؟ !
لمن كل هذي الطلولِ ...
التي تبعث الشَجْوَ في رحلتي ؟
لمن كل هذي الأثافيّ
في العرصات التي
أمر عليها ... ؟
لمن صمتي المتلظى بصدري
كنار السكينةِ ...

حين تعاودني شِدّتي
ستسألني السُحْبُ ...
حين تمرّ على صحراءِ القلوبِ ..
لتوقِظَ فيها صدى كلمتي
ستسألني كل هذي الخرائطِ ...
أينَ الخيول التي ؟ !
وأين الفتوح التي ؟ !
وأينَ الفوارسُ من كل فجٍّ ...
على صَهْوةِ ؟ !
سيسألني الشهداءُ الذينَ ...
أُلملِمُ أشواقهمْ ...
كل ليلٍ ...
يحاصرني دَمُهُمْ كل فَجْرٍ ...
ويوقفني فوق هذي الروابي ، !
لمن وجهتي ؟
لمن غنوتي ؟
لليلى التي ؟
لليلى التي ...
حاصرتها السهام الخئونةُ ...
في كل وادٍ ...
ونادٍ ..
دَفَعَتْها السهامُ ... إلى القمّةِ
لمن وَجْهُ ليلى التي ؟
لمن وَجْه ليلى التي ؟
- إنها دعوتي
- إنها دعوتي

دراسات أدبية

أدونيس ... علامات التراجع ! !

إبراهيم بن منصور التركي

بعد أن أوْهَت الحداثة اللبنانية قرنها بالنطح في صخرٍ صلد ، لم يجد كبيرها
الذي علمها الشعر بدّاً من أن يعيد النظر في أقوال البدايات . فأدونيس الشاعر
الشهير الذي نفخ في تلك الحداثة من روحه تنبه بعد طول زمان إلى خطورة آرائه
الأولى الجريئة ، فعاد يوائم بين ماكان و ما يجب أن يكون . لقد كان أدونيس يمثل
في السابق حالة الرفض المطلق للانخراط في ترس المنظومة الجماعية ،

والاستنكاف عن مجاراة المشروع السائد ، وفي مقابل ذلك كان ينتهج نهجاً هروبيّاً
ينسحب وفقاً له إلى عالم أسطوري لا يمكن أن يوجد إلا في ذهنه .
بين أدونيس اليوم وأدونيس الأمس تبادر إلى ذهني عقد مقارنة مصغرة
تكشف مدى التطور والتغير الذي آلت إليها آراؤه اليوم ، وكيف انسلخت عن بعض
أثواب أدونيس الأمس . ما الطريق الجديد الذي اختاره للتغيير ؟ . وكيف كان ذلك ؟ هذا ما ستقوله المقالة وتوضحه في السطور التالية ، عن طريق استعراض موقف
أدونيس من : الدين ، والقرآن ، والتراث .

أولاً : الدين :

يقول أدونيس في ديوانه الصادر عام 1961م :
(لا الله أختار ولا الشيطان ..
كلاهما جدارْ
كلاهما يغلق لي عيني ..
هل أبدل الجدار بالجدار ؟ ! !) [1] .
اصطدم الشعر الحداثي بصلابة التدين الشعبي الذي هاله أن يرى الألفاظ ذات
القداسة تمتهنها أبيات الشاعر الحديث ، ومن ثم : لازم الشعر الحديث نعت الكفر
والتزندق والإلحاد . ويحاول أدونيس في أحد كتبه الجديدة الصادرة في 1993م أن
يقف عند مثل هذه الظاهرة عبر قصاصة ينقلها عن المجلة العربية (العدد 91 ، أيار
مايو 1985م) فهذه المجلة تصدر حكماً بالكفر والإلحاد على الشاعر الصديق الدكتور
عبد العزيز المقالح [2] هكذا يقول أدونيس وهو يحاول أن يبين طبيعة اللغة
الشعرية وأنها مجازية ، فحين يقول الشاعر مثلاً : (صار الله رماد) ، لا يقصد
المدلول الحرفي المباشر الظاهر ، أي : لا يقصد أن الله نفسه الذي يؤمن به المسلم
هو في ذاته صار رماداً ... الشاعر هنا يرمز بقوله هذا إلى حالة عامة من تراجع
أو غياب فكرة الله الواحد ، وما تنطوي عليه من قيم وما تفترضه من سلوك ، إنه
على العكس ينتقد هذه الحالة التي تتمثل في كون الممارسة الدينية السائدة تبتذل فكرة
الله المتعالية وتشوهها بحيث يبدو الله عبر هذه الممارسة كأنه أصبح رماداً ،

والشاعر هنا مؤمن بالله كأبهى ما يكون الإيمان [3] ، وكذلك يحاول أدونيس تبرير
عبارة مماثلة وردت في شعره هو ، إذ صرخ الجمهور لما سمع أدونيس يلقيها في
إحدى الأمسيات : لقد كفر [4] .
ليس الشاعر الجديد كافراً -كما يقول أدونيس- بل هو مؤمن بالله كأبهى ما
يكون الإيمان ! ! . إن الشاعر الجديد وفقاً لرأي أدونيس السابق يرسخ مبدأ الإيمان
وينميه ، كل غرضه أن (ينظّف) الممارسة الدينية السائدة من كل شوائبها
وتشوهاتها ، ، ولن أقف لأخالف أدونيس في فهمه (الجديد) لشعر المقالح ، فهو فهم محتمل على أية حال على ما فيه من امتهان لفظ الجلالة .
ولكن هل يمكن أن يفهم شعر أدونيس الذي تصدّر هذه الفقرة فهماً مماثلاً ؟ ! .
وهل يمكن أن يتبادر الفهم نفسه في قوله الآخر :

أعبر فوق الله والشيطان
دربي أنا أبعد من دروب
الإله والشيطان [5] .

إن أدونيس يؤكد في هذين المقطعين على فكرة الانعتاق من كل تشكل
أيديولوجي سابق إلهيّاً كان أم شيطانيّاً . إنه يختلق لنفسه أيديولوجيا خاصة تؤكد
فكرة الخصوصية والتفرد التي دندن حولها كثيراً . إنه رفض للدين والأيديولوجيا
برمتهما ، هكذا كان أدونيس 1961 ، أما أدونيس 1993 ففي تعليقه على شعر
المقالح يظهر كيف أنه يحاول جاهداً سحب النص الشعري الجديد من براثن الكفر
والإلحاد ، وحلحلته ليكون لبنة جديدة في جدار الإيمان ، إنهما موقفان متباينان ،
موقفان يعكسان تحولاً في الرؤية ، وتراجعاً عن النهج التصادمي إلى محاولة
التقريب والتوفيق .

ثانياً : القرآن :

يؤلف أدونيس كتاباً جديداً يحمل في عنوانه إشارة الحديث عن النص القرآني ، يأتي هذا الحديث في دراستين مطولتين كتبهما في ذلك الكتاب عن النص القرآني ، بالإضافة إلى مقالات أخر لا تمت للعنوان بصلة ، وهو يؤكد فيه على أن هذا
النص مفتاح لفهم العالم الإسلامي ، ولن يفهم أحد المسلمين وتاريخهم إذا كان يريد

هذا الفهم إلا بدءاً من استيعاب هذا النص ، والإحاطة بمستوى العلاقة القائمة بينه
وبين المسلم [6] . وبعد ثناء مطول يتحدث فيه أدونيس عن روعة البيان القرآني
وجماله البلاغي ، يتحدث بعد ذلك فيما يزيد على أربع صفحات عن ترتيب
الآيات ، وجمع القرآن ، ومراجعة جبريل للرسول مرة في كل سنة ومرتين قبل وفاة
الرسول ، ويتحدث كذلك عن كتابة القرآن في عهد النبوة من قِبَل كتاب الوحي ،
وجمعه في عهد عثمان .. إلخ ، ويشعر أدونيس بأنه يعيد البدهيات المعروفة فيقول
من ثم معلقاً على ذلك : ربما اندفع بعض القراء بعد قراءة هذا كله وسأل : تلك
بدهيات ، فلماذا تكررها علينا ؟ ، وجوابي هو : أن كونها بدهيات هو بالضبط ما
يدفعني إلى أن أكررها ، وليسمح لي أن أتابع فأقول : إن من البداهة لاستغلاقاً [7] .

ولا أحد يملك منع أدونيس من أن يتابع ، ولكن قبل ذلك ليسمح هو بالقول :
إنه يلطّف آراءه الأولى ويبغي قتل احتقانها السابق عبر تكريس البدهي المعروف .
بغيته : محو تلك الصورة الشائهة التي ارتسمت لموقف ذاته من تلك البدهيات .

ثالثاً : التراث :

يقول أدونيس عن تشاؤم ديوانه (أغاني مهيار) المنشور 1961م : هو تشاؤم
رجل ينشد حلاً جذريّاً للمعضلات الاجتماعية والثقافية في العالم العربي التي تحجب
كل آفاق جديدة ، فمهيار ، يدعو إلى ما أسميته في مكان آخر الهدم الجميل ، الهدم
الكامل لإعادة البناء [8] . تلك هي الرؤية الأولى التي حكمت تصوره للتراث ، لقد
كان يرى حتمية الهدم من أجل إعادة البناء ، كانت دعوته الأولى : حرق التراث
قبل محاولة البدء بإنشاء مشروعه المعاصر ؛ لقد قالها شعراً :

أحرق ميراثي ، أقول أرضي
بكرُ ، ولا قبور في شبابي .. [9] .

أما أدونيس الجديد 1994 فيحاول أن يتملص من دعوى التخريب التي
تضمنتها آراؤه أيام الشباب ، يحاول التبرير في سيرته الثقافية التي كتبها ، إذ يقول

عن دعوته إلى رفض التراث أو تجاوزه وتخطيه : وحين كنا نقول بالرفض أو
التجاوز أو التخطي كنا نعني على الأخص : رفض القراءات التي فهمت الأصول
بطرق لم تؤدّ إلى الكشف عن حيويتها وغناها ، بقدر ما أدت إلى قولبتها
وتجميدها ... نعرف جميعاً أن معظم الذين تصدوا لقراءة التراث بدءاً من عصر النهضة قرؤوا القراءات ولم يقرؤوا الأصول ، ومن هنا فشلها في تقديم فكر جديد أو فتح أفق جديد للبحث ... كنا في مجلة (شعر) لا نحلم بمثل هذه القراءة ، قراءة الأصول نفسها برؤية جديدة ، وإنما كنا نعمل لها ونمارسها [10] .

هكذا استبدل أدونيس بمنهجه النقضي (المثالي) منهجاً تلفيقيّاً (واقعيّاً) عماده
إعادة الترتيب ، أدونيس 1961 الذي سعى إلى نسف الكل وتقويض التراثي القديم
ليقيم على أنقاضه الجديد ، انتقل في 1993 إلى محاولة إبقاء القديم والدعوة إلى
عصرنته ، عبر تطهير القديم من ترسباته العالقة وتكريره بصورة عصرانية جديدة
على حد قوله . لقد رأى ضرورة الاحتفاظ بشرعية الغطاء التراثي دون النفاذ إلى
عمائقه الباطنة ، أي أن يستلّ من التراث نفسه ما يسوّغ مرئياته الجديدة ، كل ما
يفعله هو القيام بصهر المعطيات التراثية في قوالب فكرية معدّة سلفاً ، فيكون
التراث -من ثم- خَدَماً لتلك الأفكار الجديدة .

ولكن هل يعني هذا تراجعاً فعليّاً عن كل آرائه السابقة ؟ .

يشير أدونيس إلى أنه انضم في مقتبل عمره إلى الحزب القومي
السوري [11] ، وأنه قرأ كتاب (الصراع الفكري في الأدب السوري) لأنطون سعادة (مؤسس الحزب) ، وأن هذا الكتاب كان صاحب الأثر الأول في أفكاره وتوجهاته [12] ، وهذا يعني أن أدونيس قد اعتنق أفكار هذا الحزب وآمن بها ، فما الذي يدعو إليه الحزب القومي السوري ؟ .. من أهم مبادئه :

القوميون السوريون يتميزون بالماضي السحيق الذي يمثله الفينيقيون ،
بوثنيتهم وخمرهم وآلهتهم وعاداتهم وتقاليدهم ولذاتهم ...

أزهى العصور في تاريخ سورية هو العصر الفينيقي .

عندما يتحدثون عن سورية فإنما يقصدون بذلك سورية الكبرى والتي تضم
سورية الحالية ولبنان والأردن وفلسطين .

فكرة الألوهية اخترعها الإنسان يوم كان رازحاً تحت سلطان الخوف والوهم
والخرافة .
نظرتهم .. مادية تنكر وجود الله والبعث والرسالات واليوم الآخر [13] .
إلا أن أدونيس لا يستمر على وئام تام مع الحزب ، حيث اضطر في إحدى
مراحل حياته إلى أن يقول وبصراحة : (أنا أكبر من الحزب) ، وقد جرّت عليه هذه
المقولة لوماً عنيفاً ونقداً جارحاً جعلته لا ينساها [14] ، وكأن أدونيس في مقولته
هذه يتنصل من التطابق الفكري الكلي بينه وبين الحزب ، متذرعاً بأن الحزب قد
توقف وجمد ولم يسع إلى تحقيق أهدافه .
ومثل هذا التحول في الانتماء قد يفسر سبب انحلاله من ربقة آرائه السابقة ،
إذ يبدو أن انتماءه الحزبي السابق كان أحد الأسباب المؤثرة في آرائه الأولى ، إلا
أنه بعد انسلاله من الحزب عاود النظر في تلك الآراء ، وأحس بزيادة جرعتها
(التطويرية) عما يحتمله الواقع ، ومن ثم : كان شروعه في التعذير والتبرير ،
وهكذا إشارة تفيد أن أدونيس لا يتحول عن آرائه السابقة كنوع من التراجع
الانقلابي أو التوبة الفكرية ، بقدر ما هو تغيّر في التكتيك والاستراتيجية التي تمكنه
من الإصابة الأمثل للهدف ، إنه يبرم عقد مصالحة مع الواقع بعد أن تورط بآرائه
الثورية الأولى ، يعقد تصالحاً مع الدين ، تصالحاً مع التراث ، تصالحاً مع
الجمهور ، تصالحاً مع النقاد ، باختصار : الوصول إلى صياغة تصالحية بينه وبين النمطي
والسائد هو الهدف غير المعلن ! ! . هكذا يضطر أدونيس أخيراً إلى الإذعان لضغط
الواقع واجداً أن ركوب ظهر السائد واستخدام آلياته هي الطريقة الأمثل لنقض
السائد وتغييره .
لقد تفاجأ أدونيس وبحركة ارتدادية عنيفة باستحالة اقتلاع الجذور المتعلقة
بالقرآن والدين والتراث ، فهي ضاربة في عمق العقل العربي ، وإزالتها تعني
ببساطة إزالة الخصوصية التي جعلت العرب عرباً والإسلام إسلاماً ، لذا كان :

أدونيس على درجة من الوعي أفهمته ضرورة احتواء آرائه السابقة وتفريغها من
حمولتها الضدية ، فهل إن أدونيس اختار التوقيت إذ بدا وهجه يخبو ويؤذن
بالانطفاء ؟ . وهل إن هذا التحول سيكون وقوداً يذكي الوهج ثانية ، ويعيد إليه
الوميض ؟ . وإنْ ، فإلى متى ؟ ! ! .

---

(1) أغاني مهيار الدمشقي ، ص48 .
(2) النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص183 .
(3) السابق ، ص184 .
(4) ها أنت أيها الوقت ، ص154 .
(5) أغاني مهيار الدمشقي ، ص49 .
(6) النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص36 .
(7) السابق ، ص48 .
(8) رأيهم في الإسلام ، ص33 (مقالة بقلم أدونيس) أعدّ الكتاب : لوك باربولسكو وفيليب كاردينال ، تعريب : ابن منصور العبد الله .
(9) أغاني مهيار الدمشقي ، ص49 .
(10) ها أنت أيها الوقت ، ص56 ، 58 ، 59 .
(11) السابق ، ص93 .
(12) السابق ، ص107 .
(13) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص410 ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، ط2 ، (بتصرف) .
(14) ها أنت أيها الوقت ، ص151 .

المسلمون والعالم

حرب البوسنة : لا مكان للضعفاء !

بقلم ` د . عبد الله عمر سلطان

ربما يجد الكاتب صعوبة بالغة في الحديث عن البوسنة وأحداثها ، فالواقع أن
نهر الدم والقهر الجاري قد أصبح مثالاً واقعاً ، يحمل بين ثناياه مزيداً من التعاسة
والحسرة ، ولذا : فإن أي مأساة بوسنية جديدة لا تثير في النفوس إلا مشاعر أو
زفرات قصيرة العمر ؛ ذلك أن المأساة نفسها قد طالت وحفلت بشتى ألوان الظلم
والعسف والوحشية ، حتى أصبح الرأي العام المحلي والدولي مهيأً دوماً لاستقبال
المزيد من الكوارث والرزايا ، بل ربما وصل الأمر ببلادة الحس وموت المشاعر
أن يُستغرب مرور أسبوع أو شهر دون حصول مأساة جديدة ضحاياها هم المسلمون
الضعفاء هناك .. !

وابتداءً : فإن عجز الدول والشعوب الإسلامية تجاه مأساة البوسنة بأطوارها

المتلاحقة لا يحتاج إلى تدليل أو بيان ، ولا أجد هنا من شاهد سوى أن أحداث
البوسنة الأخيرة قد خنقت حتى أزير الشجب المبحوح أو صور الاستنكار الفلكلوري
المعتاد ، فحتى هذا أختفى ووُئِد وتلاشى الآن ؛ فالجميع مشغولون بما هو أهم : من
محاربة الأصولية و التطرف ... وربما كان الحفاظ على الهوية المسلمة في قلب
أوروبا جرحاً لمشاعر القارة المتحضرة أو استفزازاً للرجل الأبيض ، كما يفتي بذلك
خبراء الإرهاب ومفكرو الحملة القمعية ضد كل نَفَس أو صوت إسلامي في قلب
أوروبا أو في بلاد الإسلام ذاته .

هذا الخور الذي يلف العالم الإسلامي تجاه متحف البربرية الصربية الراهنة ،
يجعلنا نلتفت قليلاً إلى أصحاب القرار الحقيقيين الذين ثارت حميتهم ، وارتفعت
أصواتهم حينما مُس الدم النصراني المتمثل في تصفية جنود الأمم المتحدة ،
فسارعوا إلى الحديث عن بربرية الصرب و وحشيةٍ تذكرهم بالقرون الوسطى !

الفتيل :

بدأت موجة التوتر في البوسنة في التصاعد بعدما شهد صرب البوسنة هزيمة
منكرة على أيدي القوات الكرواتية ، التي دحرتهم من أقليم سلوفينيا الغربي الذي
يشكل ثلث الأراضي الكرواتية المحتلة من قِبَل صرب البوسنة التي أطلقوا عليها
اسم (جمهورية كاراييننا) بعد أن نجحوا في احتلالها عام 1991م ، ومع الزمن : بدا
أن حلم صربيا الكبرى القائم على تحالف جمهورية صربيا والجبل الأسود مع
جيوب الصرب في كرواتيا والبوسنة يشهد مزيداً من التصدع ؛ فالمسلمون
والكروات اليوم أقوى من ذي قبل ، بينما يشهد الجانب الصربي تراجعاً في وحدته
وقوته ، ففي المعركة التي جرت في شهر ذي الحجة من عام 1415هـ
(مايو 95 م) تراجعت الوحدات الصربية بسبب ظهور خيانات واسعة في
الجيش الصربي الذي يقوده ميلان جيلكتش الذي وجه اللوم مباشرة
إلى زعيم صربيا سلوبدان ميليفتش متهماً إياه بالتخاذل عن نصرة
إخوانهم الصرب في حربهم الخاسرة أمام كرواتيا .

لقد وضح بالدليل القاطع أن الصرب استطاعوا من خلال حلفهم القوي أن
يجتاحوا مناطق واسعة من البوسنة وكرواتيا ، لا سيما وأن الشعار المرفوع كان :
الوحدة فقط تنقذ الصرب .. وبعد ثلاثة أعوام من قيام دويلات الصرب الهمجية في
مناطق أعدائهم ظهر أن هذه الوحدة الظاهرية مهددة بالفعل ، لا سيما وأن القادة
العسكريين والسياسيين انخرطوا في تجارة تهريب المواد الممنوعة والسجائر
والوقود ، مما دفع العديد من الطواقم المهنية المدربة إلى الهجرة خارج حدود هذه
الدويلات ، حيث يتندر هؤلاء الهاربون بالفساد والمحسوبية التي وصلت إلى حد أن
زعماء سلوفينيا الغربية كانوا مشغولين عن مواجهة الكروات بتجارة بيع الوقود إلى
القوات الحكومية المسلمة بعد استيراده من كرواتيا ! !

ولا يخفي الصرب أن محاولة شق صفوفهم عبر إصدار تصريحات علنية
تنتقد فيها قيادةٌ صربية قيادةً صربية أخرى : تمثل محاولة استصدار وفاة للحلم
الصربي كما أن تقاعس صربيا الكبرى وقيادتها عن دعم صرب كرواتيا ربما ينتقل
بدوره إلى وقف المساعدة عن صرب البوسنة الذين يشكلون أقدر قيادة
صربية حالية ، وربما كان الوصف الصحيح لها أن تضاف نقطة لحرف الدال لا سيما بعد الجرائم
الأخيرة ! .

لقد هاجم سلوبودان ميلوسيفيتش الصرب الكروات لقصفهم زغرب خلال
حرب سلوفينيا الغربية ، وكان هذا دليلاً كافياً على خطورة حالة الوحدة الصربية ،
ثم ما لبث أن ذاع نبأ المحادثات الصربية الأمريكية لرفع الحظر عن بلجراد مقابل
اعتراف شكلي بجمهورية البوسنة والهرسك (دون الاعتراف بحكومتها) ، وهذا
الاعتراف يوازي جريمة الخيانة العظمى من وجهة نظر جزاري صرب البوسنة ...

ما العمل إذن ... ؟

ما يجري بين واشنطن وبلجراد من محادثات رفيعة المستوى يمكن أن يلغى
من خلال القذائف على الأرض ، صحيح أن ميلوسيفيتش قد تراجع عن إتمام

الصفقة ، إلا أن صرب البوسنة رأوا فيها تخلياً عنهم ، كما يقول مايكل إليوث ومع
بروز خطر الانشقاق الصربي : كان هناك حديث على مستوى عالٍ يرعاه البطرس
الحاقد لإعادة تحديد دور الأمم المتحدة في البوسنة ، وما يعنيه الأمين
الخائن لأمانته : هو قصر مهام الأمم المتحدة بحيث يمارس القناص الصربي هوايته المعتادة في
حصد أرواح المسلمين ، وهذا الانسحاب المقرر للأمم المتحدة في هذا الوقت يعني
أن معظم الجيوب المحمية حسب قرارات الأمم المتحدة ستكون مكشوفة لمجرمي
وطغاة الصرب ، وهنا أراد الصرب أن يبادروا إلى احتلال هذه المواقع التي
تحرسها الأمم المتحدة قبل انسحاب قواتها .

لقد بدأ الصرب في تحديهم الأرعن : بأن تجاوزوا حدود المنطقة المنزوعة
السلاح ، واستولوا على دبابات قوات بطرس غالي ، ثم أداروها إلى صدور العزل
في سراييفو فقتلوا أحد عشر بريئاً ... وحينما أصدر مبعوث البطرس التعيس
ياسوتشي أكاشي تصريحاته : بأن هذا أمر لا يحتمل ، وطلب من قوات حلف
الأطلسي أن تضرب بعض الأهداف الصربية حول عاصمتهم مدينة بالي ، قامت
القوات بقصف مواقع عسكرية مهمة ، مما دفع صرب البوسنة إلى الانتقام من قوات
الأمم المتحدة والإغارة على مواقعها وأخذ جنودها رهائن ، ضاربين بأبسط معاني
الشرعية الدولية المزعومة عرض الحائط !

الإشارات التي يجب أن نفهمها :

ظلت القوات الصربية تمارس وحشيتها وقسوتها وفظائعها لمدة أربعة أعوام
تجاه المسلمين في البوسنة دون أن تتدخل الأمم المتحدة وأوروبا وأمريكا بهذه
السرعة والغضب ، بل إن حلفاء الحرب العالمية كانوا يحتفلون بعيد النصر في
موسكو - الوجه الآخر للنازية المعاصرة - بينما يموت الشعب المسلم أمام أنظار
كلينتون في البوسنة والشيشان .

ولكن حينما يحتجز بضع مئات من البريطانيين والفرنسيين تصبح هناك

مشكلة خطيرة ومعضلة تستدعي أن ترسل فرنسا وبريطانيا من أجلها آلاف الجنود
لحفظ السلام .

هل السلام انتقائي إلى هذه الدرجة ؟ ! أم إن مسألة قتل واغتصاب واحتجاز
شعب كامل تحت سمع ونظر العالم المتحضر لا تستحق العناية والشفقة ... ؟

لقد قال العالَم النصراني المنتصر بعد الحرب العالمية الثانية : إن المجازر
الجماعية العرقية والدينية ، كمجازر النازية لن تحدث للأبد Never Again ..
لكنها تحدث اليوم وكل يوم ، ويكون ثمن الدم المسلم الرخيص أو إبادة
شعب بأكمله : مقاطعة الرئيس الأمريكي لاستعراض عسكري روسي في موسكو ... وما أرخصه
من ثمن ! ..

لقد لخص أحد المعلقين الأمريكيين مأساة البوسنة بأنها حرب الإشارات ..
ولابد للمسلمين أن يفهموا هذه الإشارات .. أو بعضها .

من هذه الإشارات : أن الغرب قد أعلنها بلسان المقال والحال : أن الدم المسلم
على التخوم النصرانية الأوروبية لابد أن يحرق لكي تكتمل طقوس التعميد
النصراني المبشر بعالم ونظام دولي جديد ، يحدث هذا في البوسنة لأعوام وفي
الشيشان لأشهر ، مع التذكير بأن دموع التماسيح لابد أن تذرف مع كل ضحية أو
مجزرة ؛ لإثبات فحولة حقوق الإنسان و حرية الصحافة في المجتمعات الغربية .

ومن هذه الإشارات : أن الصرب قد عرفوا تماماً أن الغرب قد أطلق يدهم في
أدغال وتلال البوسنة ، وأن التهويشات السابقة ضرورية من أجل استمرار
المسرحية ، وأن حلف الأطلسي وقوات الأمم المتحدة وقوات التدخل السريع وقوات
مكافحة الجراد سوف ترفع صوتها في كل مرة مهددة متوعدة ... ثم تنتهي قصة
التهديد والخلاف كما تنتهي أي رواية أو شريط سينمائي هزلي ... يفوز البطل
الأجش وتنتهي القصة نهاية سعيدة ! !

ومن الإشارات المهمة : أن وسائل الإعلام الغربية قد جندت كل طاقتها من

أجل مئات من جنود مختطفين ، بينما حفل اليوم نفسه بأحداث مهمة وقاسية :
كسقوط سبعين شابّاً مسلماً في (توزلا) ، وإسقاط طائرة وزير خارجية البوسنة
ووفاته مع مساعديه ، ومع ذلك أتت هذه الأخبار ضمن تفاصيل الاختطاف للدلالة
عن ارتفاع ثمن المخطوفين وهوان شأن القتلى والمسؤولين المسلمين .
ومن الإشارات المهمة : أن صرب البوسنة قد فهموا الدرس جيداً ؛ فالعالم لا
يخاف إلا من القوي ، والحضارة الغربية عموماً تقدس القوة وتعبدها حتى لو كان
هذا على حساب المبادئ والمثل المعدة للاستهلاك الإعلامي ، وقد فهموا أيضاً أن
المواجهة مع المسلمين تسمح لهم أن يغفر لهم الغرب الأفعال الإجرامية المثيرة
المتمثلة في ربط جنود الأمم المتحدة إلى الأعمدة والأبواب في صورة مذلة ... ولابد
أن القادة الصرب قد أمنوا العقوبة فأساءوا الأدب ، ولكم أن تتصوروا دولة أو
عصابة عربية تقوم بخمس ما قام به الصرب ، فماذا سيكون رد الفعل الغربي
والدولي .. ؟ !
من الإشارات كذلك : أن الناطق باسم الأمم المتحدة قد وصف الإرهاب
الصربي والجرائم المتتالية بأنه : عمل أشبه ما يكون بالعمل الإرهابي أما قتل 70
مسلماً في (توزلا) فقد وصف بأنه مأساة عميقة .. إن هذا العمل المخزي والمهين
لكل الأعراف الدولية يوصف بأنه : أشبه ما يكون بالعمل الإرهابي فما حقيقة
الإرهاب يا سدنة الشرعية الدولية ؟ ! .
ومن الإشارات أيضاً : النقد الجارح لبطرس الحاقد من قبل المعلقين الغربيين
بعد طرحه مشروع قرار سحب قواته من البوسنة أو تعديل مهامها ؛ حتى بعد مهزلة
الخطف وتناثر أشلاء المسلمين في جيوب الأمن الكاذب ... لقد وصفه معلق
بريطاني بأنه : رجل غير معقول في المواقف التي لا تحتمل رأيين ووصفه آخر :
بأنه ربّى في صدور الصرب كل أنواع التعنت والغطرسة بتغاضيه عن جرائمهم

وتعامله اللين معهم بينما لا تزال الصحافة العربية المهاجرة بفكرها ومقراتها تناقش
السؤال الملح والصعب منذ سنوات : هل بطرس غالي يتحامل على المسلمين ؟ ! !
لقد أشار الرئيس البوسني إلى أن العالم يحاول أن يغطي على جريمته
الأصلية ؛ حينما منع الضحية من مقاومة الجلاد ، وحرم المسلمين من امتلاك
السلاح الذي يخولهم أن يدافعوا عن وجودهم أمام الأمة الصربية الحاقدة ... إن دور
الأمم المتحدة قد بدا عارياً ، أما حلف الأطلسي فيقدم رجلاً ويؤخر اثنتين ، وطالما
أن المسلمين عاجزون حتى عن الاستنكار : فإن المعركة هناك قد انتقلت إلى طور
الحرب الداخلية التي تجري بين أقطاب أوربيين ، تجمعهم عقيدة واحدة وثقافة
مشتركة ورؤية عامة تدفعهم إلى الاستعانة بالأجساد المسلمة المستسلمة : وقوداً
للخلاف ، ورصيداً للانتقام وأسلوباً لغش الخلق كلما حدث خلاف بين الأشقاء
الحلفاء !
الحرب الدائرة في البوسنة اليوم وهذه التغطية الملتهبة هي حرب أوروبية
داخلية ، ووجودنا الهامشي يحتم علينا أن نتعامل معها على هذا الأساس حتى تنتقل
الأمة من خانة الهامش إلى خانة الأصل ، ومن موقع المستضعف إلى موقع الفاعل
المدافع عن الإنسانية التي تعاني من الظلم والعسف والموت المجاني .
وحسبنا الله ونعم الوكيل ..

المسلمون والعالم

تأملات في مسيرة الحركة الإسلامية في اليمن
الحلقة الثانية

بقلم :عبد الله أحمد ناصر

تناول الكاتب في المقال السابق إيجابيات الحركة الإسلامية في اليمن منذ قيام
الوحدة ، فكان مما ذكره : انتشارها الواسع ، وحماية شباب الصحوة ، وإنكار بعض

المنكرات ، والوقوف في وجه التغريب والعلمنة والحملات الصليبية ، ثم ثنى
الكاتب بذكر السلبيات ، فكان منها : عدم وضوح تبني منهج أهل السنة ، وعدم
تميز صفوف القيادة ، مع اعتلاء سدتها من ليسوا أهلاً لها .. ويتابع الكاتب في هذه
الحلقة ذكر ملحوظات أخرى .
- البيان -

اعتماد سياسة : إما الاحتواء وإما الإلغاء في التعامل مع الإسلاميين الآخرين في الساحة :

الحقيقة أن تعامل كثير من قيادات وكوادر الحركة الإسلامية المنضوية تحت
لواء التجمع اليمني للإصلاح مع الإسلاميين الآخرين في الساحة محل استغراب
وتساؤل ! ؛ إذ ليس أمام الآخرين إلا أن ينضووا تحت لواء التجمع ، ويباركوا
المواقف التي تتخذها قيادته ، ويسكتوا عن المنكرات والمخالفات الصادرة عنها ...
لينالوا رضاها ، وبالتالي : التزكية والمديح من كوادرها ، والمساعدة في الوصول
إلى بعض المواقع التي يمكن خدمة الدعوة من خلالها ، وإلا فإن التهميش والذم
ومحاولة الإلغاء وتحذير شباب الصحوة من المنهج الذي يسير عليه أولئك ،
ومحاولة التضييق عليهم في الوظائف لكي يتركوها ، ومحاولة حرمانهم من إمامة
المصلين في الجمع والجماعات ، والفصل لمن يقوم بالدعوة إلى الله (تعالى) من
الطلبة داخل المعاهد العلمية وبعض المدارس والكليات ... إلخ : هو الذي ينتظرهم .

ونحن نتساءل : لماذا يحتمل الإخوة في الحركة من العلمانيين والرافضة
والصوفية في الأحزاب والنقابات المختلفة ما هو كذب وافتراء وبدوافع
ونوايا سيئة ، وتقوم قيادة الحركة بدعوة أولئك إلى الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن ،
ولايُحتَمل من الإسلاميين الآخرين في الساحة ما هو أقل من ذلك مع إقراري بأن في
بعض ما يطرحونه تعد وظلم مع أن لهم حق المحبة والنصرة ، وغالب ما يطرحونه
يكون في الجملة بدافع الغيرة على دين الله (تعالى) ، وبهدف النصرة له ؟ ! ! .

لماذا تبقى الابتسامات متبادلة والصدور والأبواب مشرعة أمام بعض
العلمانيين والمبتدعة ، وتعمد الحركة إلى محاولة الإلغاء والتهميش لكل ما هو
إسلامي ليس منضوياً تحت رايتها ؟ ! ! لماذا لا يدعى هؤلاء إلى الله (تعالى) إن
كانوا على خطأ وهم أقرب ؟ ولماذا لايصبر عليهم ، ويحتمل منهم كما يحتمل من
غيرهم وهم أولى ؟

لماذا لا تغير الحركة سياسة (إما الاحتواء وإما الإلغاء) إلى التنسيق ومحاولة
توظيف الجهود لخدمة الإسلام ، مع القبول بالخلاف والتعايش معه مادام لايتعارض
مع ثوابت الإسلام وأسسه ؟

وأخيراً : لماذا نخاف من النقد إذا صدر من الإسلاميين الآخرين في الساحة ،
ونضيق به ذرعاً ، ونعتبره أمراً طبيعيّاً وحقّاً من حقوق التعبير عن الرأي إذا صدر
من غيرهم ؟ !

إن الحركة الإسلامية في اليمن بحاجة بحق إلى أن تعيد النظر في تعاملها مع
الإسلاميين الآخرين ، وكلنا أمل بأن يتداعى الغيورون من علماء وطلبة علم وسائر
المخلصين داخلها إلى ذلك .

ولا شك بأن لبعض الإسلاميين من خارج الحركة دوراً في هذه الجفوة التي قد
تصل إلى حد القطيعة أحياناً ، ولكن العتب يكون أكثر على الحركة الإسلامية ،
لأنها الآن في منزلة القيادة والظهور ، فهي الأخ الأكبر وعليها أن تحتمل ما لا
يحتمل غيرها ، وبقدر تراجع الآخرين وجفائهم ينبغي أن تتقدم هي وتحلُم ،
فخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام ، وينبغي أن يدرك الجميع أن قوتهم الحقيقية في
اجتماعهم وتآزرهم ، فالمسلم أخو المسلم ؛ لا يسلمه ولا يخذله ، والبديل الذي يعرفه
الجميع هو الاتجاه العلماني الذي أذاق الشعب اليمني ألواناً من التغريب والإفساد ؛
فليست القضية أسماءً وأحزاباً ... إصلاحاً وسلفيين و ... و ... ولكن : إما إسلام
وإما علمانية .

تعويل الحركة كثيراً على القبائل :

دخلت الحركة الإسلامية في اليمن في أوساط القبائل وعملت على أن يكون
شعار القبائل الذي ترفعه هو الإسلام ، وحسناً فعلت ، إلا أنه من المفترض أن يكون
هدف ذلك الدخول : هو تيسير دعوتهم ومحاكمتهم إلى شعارهم متى خالفوه ، أما أن
نكتفي كما هو الواقع في كثير من الأحيان برفع تلك القبائل لشعار الإسلام فقط دون
أن يصاحب ذلك برامج دعوية وتعليمية مكثفة لها ، فأمر أظنه خاطئاً وخطيراً .
وكل ما أخشاه أن يدعي بعض أعداء الصحوة الإسلامية بأن هدف الحركة من
الدخول في أوساط القبائل بل وفي أوساط الجماهير اليمنية عموماً هو كسب ولائها
للحركة ، وضمان مناصرتها لتوجهها السياسي وكل ما يخدم ذلك الهدف لا غير .
وأحسب أن القيادات المخلصة في الحركة الإسلامية لا ترضى أن يكون
التوجه إلى تلك القبائل والجماهير لمجرد الاعتماد عليها في الدفاع عن الحركة
ومنجزاتها ، عن طريق كيل المديح والتمجيد لشيوخ تلك القبائل ، فإن معظم هؤلاء
في الغالب أتباع كل ذي مال ومنصب . ولا يرضي مخلص واعٍ رَبْط حماية الحركة
وشبابها بهم وإعطاءهم مكانة بارزة وثقلاً كبيراً في التأثير على توجه الحركة
وقراراتها ، وأظن أن ذلك يحتاج من كل مخلص داخل الحركة من علماء وطلبة علم
وغيرهم إلى إعادة النظر فيه ، والعمل على تلافيه .

ظاهرة ضعف الموارد المالية :

مع أن عمر الحركة الإسلامية في اليمن طويل نسبيّاً إلا أن الملاحظ ضعف
إمكاناتها المادية وشح مواردها ، وهاتان في نظري ظاهرتان متناقضتان : حيث إن
المفترض أن تكون هناك علاقة طردية لا عكسية بين عمر الحركة ومواردها ،
ولكن للأسف : إن الأمر ليس كذلك ، وجل موارد الحركة تأتي في الوقت الحاضر
كما هو ملحوظ من توظيف بعض أفرادها في طلب التبرعات وجمعها ، وهذا مورد
مهم ولاشك ، ولكنه ليس مورداً ثابتاً ومستقرّاً ، بل هو مرتبط بمدى شعبية الحركة

ودعاتها واقتناع الناس بهم ، وهذا الأمر مرتبط بعوامل كثيرة ليس هذا موضع
الحديث عنها ، بحيث تزيد في الموارد تارة وتنقصها أخرى ، مما يعني إمكانية
تعريض الدعوة ومشاريعها للخطر
وربط استمرارية تلك المشاريع برحمة المتبرعين
، ولو سلمنا جدلاً بثبات هذا المصدر واستمراره ، فإنه ليس بمورد كاف بالتأكيد
والواقع خير شاهد مما يحتم على قيادة الحركة إعطاء هذا الجانب ما يستحقه من
تفكير واهتمام .
وهذه الإشكالية ليست خاصة باليمن ، ولكنها مع الأسف الشديد عامة في أكثر
دول العالم الإسلامي ، وعند مختلف فصائل العمل الدعوي ، والذي نأمله من
الحركة الإسلامية في اليمن أن تعمل على الوصول إلى النضج الاقتصادي
والاستثماري بمثل سعيها إلى الوصول إلى النضج السياسي ، وهما قرينان يدعم
أحدهما الآخر .

ملحوظات دعوية وتربوية متفرقة :

لكي لا يتشعب الحديث ولا أخرج عما يناسب مجلتنا الغراء [البيان] سأوجز
بعض المآخذ الدعوية والملحوظات التربوية على الحركة في النقاط التالية :

1- ضعف العلم الشرعي :

ضعف العلم الشرعي داخل صفوف الحركة أمر تجاوز حد الظاهرة إلى
المشكلة ، ويبدو أن انشغال الحركة بالعمل السياسي وغلبة خطاب علمائها ودعاتها
في هذا الموضوع وما يخدمه في أغلب الملتقيات وخطب الجمعة قد ساعد على
الوصول إلى تلك النتيجة ، هذا بالإضافة إلى ضعف التوجيه لشباب الحركة إلى
طلب العلم الشرعي ، والقلة النسبية في أعداد طلبة العلم ، وعدم قيام الموجود منهم
بدوره ، والانفصام بين قيادة الحركة وبعض الإسلاميين الآخرين غير التابعين لها ،
الذين يوجد لديهم علم شرعي لابأس به ، مما جعل كل تلك الأسباب وغيرها
تتضافر للوصول بالحال إلى ما وصل إليه ، وليس المراد بالطبع أن يكون جميع

شباب الحركة في مستوى رفيع من العلم الشرعي ، ولكن المراد : أن تتوجه قيادة
الحركة الإسلامية في اليمن إلى العمل على إيجاد الحد الأدنى من العلم الشرعي الذي
لايعذر المسلم بالجهل به لدى أولئك الشباب ، بالإضافة إلى السعي إلى إيجاد طبقة
من الشباب متفقهة في أمور دينها تتولى زمام تعليم بقية شباب الحركة الحد الأدنى
من العلم الشرعي وتكون متفرغة لذلك .

صحيح أن الحركة قد أنشأت مئات المعاهد العلمية ، ومدارس تحفيظ القرآن ،
وكلية القرآن الكريم ، وجامعة الإيمان ، وهي ساعية عن طريق تلك المعاهد
والكليات لأداء نوع من الواجب في معالجة ضعف العلم الشرعي لكنها مع حداثة
إنشاء الكلية والجامعة من وجهة نظري غير كافية بسب اقتصارها على فئة محدودة
من أبناء الحركة ، ولابد من توجه علماء الحركة وطلبة العلم الشرعي في كافة
أنحاء البلاد إلى المساجد بكثافة ، لإقامة الدروس العلمية والمحاضرات الشرعية
لأبناء الحركة وعامة الأمة ، وأن يتم التركيز على إقامة تلك الدروس
والمحاضرات ، وبكثافة أيضاً في جميع المحاضن التربوية وبخاصة في هذه الفترة التي لا توجد
فيها أمور تشغل كافة كوادر وأنصار الحركة كالانتخابات وغيرها .

2- ظاهرة ضعف الالتزام بالأحكام الشرعية داخل صفوف الحركة :

من الأمور المحزنة الموجودة داخل صفوف بعض قيادة الحركة وشبابها :
ظاهرة ضعف الالتزام بالأحكام الشرعية وعدم أخذ الإسلام بقوة ، وذلك بسبب عدم
الاعتناء بترك الذنوب الصغير منها والكبير ، وسلوك مسلك انتقائي في التحذير من
بعضها ، والبعض الآخر بسلوك مسلك التبرير معها ، ومن تلك الذنوب : حلق
اللحية ، ومصافحة النساء ، وشرب الدخان والشيشة ، ومضغ القات ، ومشاهدة
التلفاز بما فيه من مخالفات شرعية ، والتخلف عن صلاة الجماعة ، وضعف الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر أثناء الاختلاط بالعامة ... إلخ .

وليس المراد بالطبع الحديث عن معاصٍ بعينها ، وإنما المراد الحديث عن
نفسية معينة في الاتباع لنصوص الشريعة ، والتنبيه إلى أهمية تربية الشباب على
ضرورة التسليم والانقياد الخالص لكتاب الله (تعالى) وسنة نبيه -صلى الله عليه
وسلم- بحيث يصبح الحال متى سمع شاب من شباب الحركة أمراً لله (تعالى) أو
الرسول -صلى الله عليه وسلم- فعلاً أو تركاً هو المبادرة إلى تنفيذ الأمر سواء
أكان ذلك على سبيل الوجوب أو الندب أو الحرمة أو الكراهية ، فإن لم يفعل شعر
في نفسه بحزن وتأنيب ضمير على وقوعه في ذلك ، أي : أن نربي الشباب على
تحقيق محبوب الله (تعالى) وتعظيمه بدلاً من أن نجعلهم ينظرون إلى ذات الفعل ،
فإن كان مندوباً فكأنه لاداعي لفعله ، وإن كان مكروهاً فكأنه لاداعي لتركه ،
بالإضافة إلى الضرب على وتر : هذا مختلف في حله أو حرمته أو وجوبه أو
ندبه ، وكأن الاختلاف فيه بين أهل العلم مسوغ للعبد أن يختار من أقوالهم ما شاء ،
وسلوك مسلك التبرير لترك واجب أو فعل محرم من قبل إخوان الفاعل لذلك ، بدلاً
من المبادرة إلى نصحه وتنبيهه .

إن وجود هذه الظاهرة داخل أوساط الحركة يوجب على علمائها وطلبة العلم
الشرعي فيها تدارسها والخروج بحلول عملية لتجاوزها قبل أن تنتشر وتستشري
فيتم الندم ولكن بعد فوات الأوان ولله در رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذي
حذرنا من تلك الظاهرة ؛ فقال فيما رواه سهل بن سعد في مسند الإمام أحمد وغيره
بسند صحيح : إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا
بطن واد فجاء ذا بعود ، وجاء ذا بعود ، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم ، وإن
محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه .

3- ظاهرة تربية الفرد من أجل المجموع :

يجد المتابع ظاهرة تربية الفرد من أجل المجموع جلية في أوساط الحركة حين
يلاحظ الجوانب الإيمانية (الروحية) والعلمية لدى شباب الحركة ويقارنها بالحرص

على العمل الدعوي ، ولقد سمعت محاضرة لأحد مشاهير الدعوة الإسلامية
والمنضوين تحت لواء الحركة ، وطرح فيها السؤال التالي : لماذا خلقنا ؟ ، وكان
جوابه : لدعوة الناس إلى الإسلام ! ! ! وأنا لا أنكر أهمية الروح الجماعية
وضرورتها ، لكن هذا جانب ، وهناك جانب آخر أهم وهو الاعتناء بالفرد عقديّاً
وسلوكيّاً ، لأن مدار النجاة يوم القيامة على ذلك كما لايخفى ، ولعل اتساع قواعد
الحركة ، وانشغالها في المرحلة الماضية بالخطاب السياسي لضرورات آنية أدى
إلى التقصير في بعض الجوانب التربوية ، فإذا عذرت الحركة نسبيّاً في السابق
فينبغي أن تتنبه في هذه المرحلة المستقرة نسبيّاً ، وتسعى إلى جعل التربية بجوانبها
المختلفة من أولى الأولويات التي يجب الاعتناء بها والتركيز عليها .

ومن البدهي أن العناصر الكريمة والمعادن الثمينة التي تربت ونضجت واتقت
الله (عز وجل) هي الذخر الحقيقي للعمل الإسلامي ، وهي الجذور القوية التي
ترسخ من عمق الحركة وثباتها .

كما عليها أن تحرص مستقبلاً على أن تسير برامجها التربوية وفق جداول
مرسومة لا تتأثر بالأحداث الجارية وما يصنعه أعداء الصحوة من قضايا وأحداث
لإشغال الحركة بها ، ولفت أنظار كوادرها وتفريغ جهودهم وطاقاتهم فيها وألا يكون
الأمر جارياً على التعايش مع الأحداث الواقعة لا غير ، بل ينبغي أن يبقى تنفيذ
البرامج التربوية وفق الجداول الزمنية المرسومة لها على أن يكون في البرامج
المطروحة مرونة نسبية مع ما يستجد من أحداث ؛ حتى لا تضطر الحركة نتيجة
أمور طارئة إلى تعليق برامجها وعدم تطبيقها .

4- ظاهرة وجود دعاة غير مؤهلين للدعوة :

يبدو أن الانتشار الأفقي الكبير للدعوة أجبر المسؤولين عن الحركة على
الاستفادة من كل من ينتسب إليها وإن لم يكن أهلاً لذلك وهذه ظاهرة ذات شقين :

شق إيجابي : سبق الحديث عنه ، حيث يتم توظيف مختلف الطاقات والاستفادة من
كل الإمكانات ، بشرط أن يكون ذلك بحدود معينة ، وبدوائر محددة ، وتحت متابعة
وإدارة واعية لا تعتني بالكم فقط على حساب الكيف .
وشق سلبي : حينما يقدم أولئك إلى ما لا يحسنون ، ويعملون فيما لا يتقنون ،
وتزداد الخطورة حينما يؤدي ذلك إلى ترقي هؤلاء في سلم القيادة حتى نفاجأ في يوم
من الأيام بقيادات هشة هزيلة لا تملك مؤهلات الدعوة والقيادة .

5- ظاهرة ضعف التربية الرأسية لشباب الحركة :

من الظواهر الخطيرة في مسيرة الحركة ضعف التربية الرأسية لكوادرها
وعدم وجود متابعة كافية للفرد خلال تلقيه العمل التربوي ، فمثلاً : نحن لا نعلم عن
هذا الفرد المستمر معنا خمس سنوات ما البرامج العلمية التي أخذها ، ولا جوانب
الضعف لديه في النواحي الإيمانية وغيرها ، ولا الوسائل التي عولجت بها بعض
نقاط ضعفه في مراحل سابقة ، ولا البرامج العلمية والإيمانية والدعوية المفترض
أخذه لها في المستقبل ، كما أننا لا نملك تقويماً لمدى استفادته من البرامج التي
شارك فيها .
والتسليم بذلك من قِبَل قيادة الحركة يعني أن دعوتها متجهة اتجاهاً جماهيريّاً
فقط ، وأنه من الممكن اختراقها بسهولة من بعض من لاخلاق لهم وما أكثرهم
وبخاصة إذا أجاد أحدهم فن تبني بعض القضايا التي هي محل اهتمام كبير لدى
الحركة كالانتخابات وغيرها من القضايا التي يوالي عليها بعض الناس ويعادي .
والمفترض وجود حد أدنى من المميزات والخصائص لمن يتربى من الشباب
في المحاضن التربوية للحركة كالمعاهد العلمية والمراكز الصيفية والمخيمات
وغيرها ، بحيث تصبح لدى الشاب من المسلّمات التي لابد من تحصيله لها حتى
يستمر مع إخوانه ، وبالتالي : لايحتاج المربي إلى صرف جهد ووقت لغرسها في
نفوس من حوله ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى : تضمن الحركة بذلك وجود حد

أدنى من الالتزام لدى شبابها يتميزون به عن من لم يتربّ من الأشخاص في
صفوفها ، ومن الممكن أن تكون تلك الخصائص والمميزات : أداء الفرائض ،
واجتناب الكبائر ، وعدم الإصرار على الصغائر ، والحرص على إتيان المستحبات
وترك المكروهات ، وحفظ شيء من القرآن الكريم ، والمحافظة على صلاة الجماعة
وأداء السنن الرواتب ، والمحافظة على الأذكار المأثورة ، وترك مضغ القات ،
وبعض الظواهر الاجتماعية المخالفة للشرع ... ونحو ذلك .

وقبل أن أنهي الحديث حول هذه الظاهرة أشير إلى أن الضعف فيها بل وفي
الناحية التربوية عموماً ليس خاصّاً بالحركة اليمنية ، بل هو عام في مختلف
الحركات والاتجاهات الدعوية في العالم الإسلامي ، وينبغي للأخوة اليمنيين كما
ينبغي لغيرهم الاستفادة من أخطاء وتجارب الآخرين .

6- ظاهرة تربية الشباب على الاكتفاء بالولاء للحركة ورموزها :

من الظواهر المحزنة والموجودة ظاهرة تربية كثير من شباب الحركة على
الولاء للجماعة ورموزها لا على القيم والمبادئ التي جاء بها الإسلام ، وإذا أراد
شخص أن يعرف مصداقية هذا القول فعليه أن ينظر : كم من الأخيار ليس له
نصيب من الولاء في نفوس الكثير من شباب الحركة ، وذلك بسبب عدم انضمامهم
للحركة ، أوبسبب قيامهم بنقد بعض مواقفها ، وكم عظمة المحبة لأشخاص لا التزام
لديهم في المظهر ، وتوجد لديهم الكثير من المعاصي الظاهرة سواء في المعتقد
والفكر أو الممارسة والسلوك ، وكل ما عملوه هو إظهار الانتماء للحركة والتأييد لها
في مواقفها وممارساتها .

كما عليه أن ينظر إلى روح التبرير القوية جدّاً لأخطاء وممارسات المنتمين
للحركة وبالأخص قيادتها من كثير من كوادرها ، وحين تنقطع الحجة تأتيك القاعدة
المحكمة : هم أعلم وأفهم ! ! .

ولكن روح التبرير تنقلب إلى روح لتجريح الأشخاص غير المنتمين للحركة ،

وحينما تحاور أحدهم وتذكر له حسنة تُفْرِح عند أحد أولئك ، يذكر لك سيئة تُحْزِن ،
وكأن كل شغله الشاغل هو إثبات الخطأ للمتحدث عنه ، ونسبة النقص إليه لا غير ،
مهما علت رتبته وبلغ فضله .. نسأل الله (تعالى) للجميع السلامة والعافية .

7- الحساسية الشديدة من النقد :

توجد لدى بعض قيادات الحركة وكثير من كوادرها حساسية كبيرة من النقد
تجعلهم يقفون موقفاً معادياً من كل من ينبه الحركة إلى أخطاء أو منكرات وقعت
فيها ، وقد جر ذلك إلى تربية شباب الحركة على التبرير للأعمال المطروحة من
قِبَل قيادة الحركة وعدم نقدها ، ونتج عنه : عدم تربية الحركة لوجوه قيادية شابة
مبتكرة ، بل لنسخ مكررة من المربين ، ولكن ليس بنفس الجودة بل بمستوى أقل ،
هذا من جهة ، ومن جهة أخرى : عدم نضج الأفكار المطروحة داخل الحركة بنار
النقد ، وصقلها بمطرقة النصح ، وكان من نتائج تلك الحساسية والغياب الملحوظ
للنقد الذاتي داخل الحركة : المبالغة والتهويل في الحديث عن الآخرين ذمّاً
أو مدحاً ، وتضخيم الإنجازات والاعتزاز الكبير بها ، وليست الإشكالية في اعتزاز الحركة
بفعلها الصواب وحديثها عن ذلك ، فذاك حق لها (وأما بنعمة ربك فحدث) ، لكن
الخطر : هو أن يتحول ذلك الاعتزاز إلى عُجْبٍ وغرور يعمي ويصم ، وقد قال
بعض السلف : إنما الهلاك في اثنين : العجب والقنوط .. ، ولست أدري لماذا
نخاف من النقد إذا كان لدينا نكران للذات وحرص على الوصول للأفضل ؟ .

وأخيراً : فنصيحة من محب ؛ فإني أرى أن الواجب على الحركة الإسلامية
في اليمن أن تسعى إلى امتلاك نظرة مستقرة لتغيير المنكرات المتواجدة في الساحة
اليمنية بحيث تسير كافة جوانب العمل الإسلامي على وفقها ومن أجل خدمتها ، بل
وعليها أن تُضَمّن في خدمة تلك النظرة جهود الإخوة الدعاة العاملين في الساحة من
خارجها ، وأن تعمل على توظيف ما يقومون به لخدمتها ، كما عليها أن تحذر من

القيادة العلمانية في الساحة اليمنية وتدرك ألاعيبهم بشكل أعمق ، وتحذر من الدخول
في الشراك السياسية التي يقيمونها للحركة ، وأن تعلم بأنهم ما وافقوا على دخولها
للحكومة في هذه المرحلة إلا لحاجتهم الماسة إليها ، وإلى قادتها وجماهيرها ، وأن
الظروف متى تحسنت بالنسبة لهم فإنهم قد يقلبون ظهر المجن للحركة في أي لحظة
كما قلبوه في السابق والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين وبخاصة في ظل الحملة
الدوليّة المنظمة عالميّاً وعربيّاً على ما يسمى بالحركات الأصولية لمنعها من تجاوز
ما يضعونه من دوائر حمراء ، سواء أكان عن طريق العمل السياسي أو غيره .

أعزائي القراء : كانت تلك بعض الإيجابيات التي لدى الحركة الإسلامية في
اليمن ، والتي أدعو العاملين في الساحة الإسلامية إلى الاستفادة منها ، وهذه بعض
السلبيات التي أدعو الحركة الإسلامية في اليمن والمنضوية تحت راية التجمع
اليمني للإصلاح إلى النظر والتأمل فيها بروية وإحسان ظن ، خاصة أنها كتبت
بمداد الحب وبدافع النصح وإرادة الخير ، على أن ما فيها من صواب هو من الله
(تعالى) وحده ، وما فيها من خطأ فهو من نفسي الأمارة بالسوء ومن الشيطان ،
وأستغفر الله ، والله ولي التوفيق والسداد ؛ قال الله (تعالى) : ﴿ إنْ أُرِيدُ إلاَّ الإصْلاحَ
مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

المسلمون والعالم

الأصولية الغربية .. المنشأ والواقع والمستقبل (1)

بقلم :ياسر قارئ

تمهيد :

كثرت في الآونة الأخيرة الكتابات والتصريحات حول الأصولية الإسلامية
والتنديد بخطرها حتى أصبحت قرباناً يَقْدُمُ الحجاج إلى عواصم الدول الغربية
المتسلطة ، وعربوناً للمزيد من الصفقات المالية والعسكرية . وخشية من ضياع

الحقيقة وسط ضجيج الباطل أقدمت على كتابة هذا الموضوع ، لنستكشف سويّاً
حقيقة الأصولية المتسترة تحت أخلاق الديمقراطية العلمانية ، وفي الوقت نفسه نعي
حجم الدور الذي تلعبه تلك القوة الشريرة في تسيير دفة الأمور في عواصم القرارات ، ولعل في هذه المحاولة عبرة وعظة للمنخدعين بسعة صدر الديمقراطية وجاذبيتها
الخلابة ممن صُنعوا على أعين أجنبية في المناطق الثلجية ، أيضاً لعله يستفيد منها
إخوة لنا في الدين غفلوا أو جهلوا حقيقة المسرحية الدرامية التي يتم من خلالها
احتكار القرارات الخارجية المتعلقة بالشعوب الإسلامية في ردهات البرلمانات
الغربية ، إذ ليست العبرة بتكوين مجموعة عمل مؤثرة تلقي بثقلها الانتخابي على
أصوات النواب ؛ ليحصل المسلمون على بعض حقوقهم ، وإنما بمعرفة طبيعة
العلاقة الدينية العقدية التي تربط صُنّاع القرار بتلك المنظمات ؛ إذ التقوا على موجة
واحدة أصبحت لا تفرق فيها بين الرئيس والقسيس ولا بين النائب والراهب ،
يعملون جميعاً لتهيأة الظروف التي نص عليها الكتاب المقدس لاستقبال أمير السلام
المسيح عيسى ابن مريم (عليه الصلاة والسلام) .

وليسهل تناول الموضوع قسمته إلى ثلاث حلقات : أعرض في الأولى منها
الأسس التي قام عليها المذهب البروتستانتي النصراني وصلة ذلك بالمهاجرين
الأوائل إلى العالم الجديد ، أما الحلقة الثانية فسيكون الحديث فيها عن المنظمات
الإنجيلية الأصولية التي استمدت منهجها من ذلك المذهب ودورها على المسرح
السياسي ، ثم أتطرق في الختام إلى نتائج ذلك الدور من خلال صناديق الاقتراع ،
مع تسليط الضوء على مواقف لبعض قادة اليمين الديني في بلاد (العم سام) !

إن الصراع الأزلي بين الحق والباطل هو الذي أدى إلى قيام ما يعرف
بالولايات المتحدة الأمريكية ، فالمعروف عندنا ب (الكشوف الجغرافية) كان بمثابة
محاولة للالتفاف حول العالم الإسلامي ، ومن ثم سهولة القضاء عليه ؛ وذلك لفشل

أوروبا في الغزو المباشر نظراً لوجود الدولة العثمانية التي وقفت ولقرون عديدة سدّاً
حائلاً بين الصليبيين والعالم الإسلامي ، فكانت رحلة كريستوفر كولمبوس التي
ادّعى فيها اكتشافه للعالم الجديد ، ثم ساهم الصراع الديني بين الكاثوليك
والبروتستانت في الهجرة والاستيطان في الأرض الجديدة التي اغتصبوها من
سكانها الأصليين ، وأدى تشاغل بريطانيا العظمى (سابقاً) بالمشاكل القريبة منها (أو
لعله إيثارها التركيز على المناطق الإسلامية) إلى غض الطرف عن الدولة الناشئة
على الضفة الغربية للمحيط الأطلسي ؛ هذه العوامل مجتمعة أوجدت القوة العظمى
اليوم ، إلا أن الدين ينفرد بدور خاص في إحداث هذا المخاض ؛ حيث عبّر إليكس
دي تاكفيل عن ذلك بقوله : إننا يجب ألا ننسى : أن الدين هو الذي أوجد المجتمع
الأمريكي ؛ فهو يتدخل في كل عادات المجتمع ومشاعره الوطنية ، مما يشكل قوة
فريدة ومتميزة ، ولا تزال النصرانية تتمتع بالهيمنة على الرأي العام الأمريكي ،
وهذا مسلم به [1]، لقد وصف دي تاكفيل أمريكا في القرن التاسع عشر تقريباً أثناء
زيارته لها ، فيا ترى ما هو هذا الدين الذي أوجد هذه الإمبراطورية ؟ وهل لهذا
الدين انعكاسات على صناعة القرار السياسي أم إن أمريكا دولة علمانية ؟ .

لكي تتضح الصورة ، سوف أستعرض واقع المهاجرين الأوائل ومعتقداتهم :

منذ القرن السادس عشر الميلادي : أصبح الكتاب المقدس للنصارى يشتمل
على العهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الإنجيل) ، وكان للقس مارتن لوثر الدور
الأكبر في هذا التحول الخطير والمهم ، لما له من آثار مستقبلية ، ولقد سميت
حركته هذه ومن سار على نهجها فيما بعد ب (البروتستانت) أي : المعترضين الذين
خرجوا على سلطان الكنيسة الكاثوليكية في روما ، ويطلق عليه النصارى لقب
المصلح ظناً منهم بأنه قد حسّن أوضاع الكنيسة وصلاتها بالمجتمع ، وبغض النظر

عن الأسباب التي دفعت لوثر إلى ذلك فإن المهم في الأمر هو دمج الكتابين وتقبل
النصارى لذلك ، وماذاك إلا لأن العهد القديم قد أصبح في ذلك الوقت كتاباً سياسيّاً
يقوم على قاعدة الحق الإلهي في الأرض المقدسة للشعب اليهودي [2] ، ونتيجة
لذلك الاندماج تسربت إلى العقيدة النصرانية ثلاثة أمور رئيسة هي : أولاً : زعم
اختيار الله لليهود وتفضيلهم على سائر الأمم ، ثانياً : ما يدعى بالحق الإلهي لليهود
في الأرض المقدسة في فلسطين ، ثالثاً : ربط الإيمان عند النصارى بعودة المسيح
(عليه الصلاة والسلام) ثانية بقيام دولة صهيون [3] .. وعلى هذه الأسس قامت
المنظمات الأصولية أو الإنجيلية النصرانية التي أخذت على عاتقها عبء تطويع
القرارات السياسية الخارجية للولايات المتحدة وتجييرها لصالح إسرائيل -كما
سنرى فيما بعد- .

انبثقت عن هذا الفكر في أوروبا طائفة تسمى البيورتانتس أو المتطهرين ،
وقد غالت هذه الفرقة في تعظيم الكتاب المقدس مع إعطاء الأولوية للعهد القديم ،
وبالتالي : ساهمت في نشر الثقافة العبرية على المستوى الشعبي ، فرضع الإنجليز
النصارى مفهوم الأرض المقدسة التي حارب أجدادهم الصليبيون خلال حملاتهم
المعروفة من أجل السيطرة عليها ؛ ليجتمع فيها اليهود فيكون ذلك حسبما يرون
مقدمة لعودة المسيح (عليه السلام) ، فوصلت النهضة العبرية بأفكارها المتداخلة
المؤيدة للصهيونية ذروتها في عهد الثورة البيورتانية في بريطانيا في القرن السابع
عشر [4] ، وتعدى التطرف النصراني إلى مطالبة مجموعة تطهيرية تدعى لفلرز
الحكومة الإنجليزية بإعلان التوراة (العهد القديم) دستوراً للبلاد [5] ، وربما لا
يستغرب أمر كهذا خاصة إذا سبقه تمهيد على مستوى المجتمع ؛ إذ كانت تقام
الصلاة في الكنائس باللغة العبرية ، وكذلك كانت تلاوة الكتاب المقدس بالعبرية بدلاً

من اللغة اللاتينية ، وأصبح الأطفال يعمّدون بأسماء عبرية بدلاً من أسماء القديسين
النصارى ، وتوجت هذه الهيمنة اليهودية على الدين النصراني بشقه البروتستانتي
بنقل يوم الاحتفال الديني ببعث المسيح (عليه الصلاة السلام) إلى يوم السبت
اليهودي [6] . وفي سنة 1807م تم تأسيس جمعية لندن لتعزيز النصرانية بين
اليهود ، ولقد تبنى وزير الخارجية اللورد بالمرستون تسهيل عودة اليهود الغرباء
إلى فلسطين رغم أنه لم يكن من أتباع الحركة الصهيونية ، وتابعه في ذلك اللورد
جلادستون ودوق كنت [7] .. نخلص مما سبق إلى أن حركة الإصلاح الديني في
أوروبا التي نشأت عنها طائفة البروتستانت قد غيرت كثيراً من المواقف السياسية
فضلاً عن الاجتماعية والدينية ، على الرغم من أن أوروبا كانت ولا تزال ترفع
شعار العلمانية وتُسَوِّقُه لدول العالم وبالذات مستعمراتها السابقة .

من تلك الطائفة البروتستانية التي تُدعى (التطهيرية) جاء جُلّ المهاجرين
الأوائل إلى الولايات المتحدة ، فحملوا معهم التقاليد والقناعات التوارتية وتفسيرات
العهد القديم التي انتشرت في أوروبا وإنجلترا بالذات في القرنين السادس عشر
والسابع عشر ، فسّموا أنفسهم (أبناء إسرائيل) واحتفلوا بيوم السبت راحة لهم ،
وأدخلوا اللغة العبرية إلى جامعة (هارفرد) الشهيرة ، وألزموا الطلاب بها ، وجعلوا
ترجمة التوراة من العبرية إلى اللاتينية أساساً لاجتياز الدراسة [8] .

ويقول الرحالة الفرنسي دي تاكفيل في وصفهم : إنهم أحبوا أن يطلق عليهم
وصف الحجاج (أسوة بمن يزور موطن ولادة المسيح عليه الصلاة والسلام) وطبقوا
القوانين وكأن ولاءهم للرب فقط ، فلم يعد هناك ذنب إلا وأقيم عليه الحد (بمفهومهم)
من زنى أو اغتصاب أو علاقة محرمة ، بل وصل الأمر بهم إلى القيام بجولات
على المنازل لمعاقبة المتخلفين عن حضور القداس الذي جعلوه فرضاً على الناس

وأنزلوا أشد العقوبة بهم [9] .
وظنوا أن العالم الجديد هو الأرض الموعودة فسمّوا مدناً كثيرة
بأسماء عبرية
قديمة ، كما ظنوا أن الهنود الحمر هم القبائل اليهودية العشر المفقودة
فحاولوا ردّهم
إلى اليهودية ؛ ليعجلوا بالعودة الثانية للمسيح (عليه الصلاة والسلام) ، وقد
سمحوا
لليهود ببناء محافلهم الدينية في وقت مبكر جدّاً بعد هجرتهم وقبل
السماح للطائفة
الكاثوليكية بذلك [10] ، الأمر الذي حدا بأحد الوزراء (رئيس المحكمة
العليا فيما
بعد) واسمه روجر تاني إلى القول : إنه لو وصل إلى أمريكا أي شخص
يخالف
المستوطنين البيض النصارى لما اعترف بأنه مساوٍ لهم أو مستحق
لمشاركتهم في
المزايا التي يمتعون بها ، فالأمم الوحيدة المتمدنة على الأرض هي
الشعوب
النصرانية البيضاء التي تقطن أوروبا ، وأولئك المهاجرين يمكن قبولهم [11] ،
ومن هذه التركيبة الاجتماعية والعقدية انحدر المؤسسون الأوائل
لنظام الحكم
والدستور الأمريكي ، فتومس جيفرسون على سبيل المثال (وهو متهم
من قبل
بعضهم بعدائه للدين) قد حاول من خلال وضعه للائحة الحرية الدينية سنة
1779م
الحفاظ على انتشار النصرانية بفصلها عن الدولة ، وعذره في ذلك (أي
الفصل) :
هو أن النصرانية ازدهرت خلال السنين الثلاثمئة الأولى دون الحاجة إلى
مؤسسة
تدعمها ، وعندما تبناها الإمبراطور قسطنطين بدأ صفاؤها في الزوال [12] ،
ولعل
هذا الموقف لا يبدو غريباً منه وهو الذي صنّف كتاباً عنوانه : (حياة وأخلاق
يسوع
الناصري) وذلك في عصور التنوير ! وبالرغم من إيمانه ب (إله الطبيعة)
(وهو
عكس إله الوحي) إلا أنه أوجب على الحكومة الحث على الدين ورفض
(اللادين) ،
بل وأيد رفض المحكمة لشهادة الملحد ، وقال : لتكن وصمة عار عليه [13] ، وقد
أبدى اهتماماً بالغاً بالدين ، وأشعر بأهميته للناس : فجعله بمثابة
الدستور لهم

لحاجتهم إلى مصدر فوق البشر يدفعهم لمنح الحقوق الطبيعية للآخرين ؛ مثل
الحكومة التي تحتاج إلى دستور لكبح جماحها [14] ، أما أغرب ما صدر عنه : هو
اقتراحه بأن يكون شعار الولايات المتحدة على شكل أبناء إسرائيل تقودهم في النهار
غيمة وفي الليل عمود من النار ، بدلاً من النسر أسوة بحال اليهود في فترة
التيه [15] ، فلا عجب إذاً في أن ينتخب للرئاسة في سنة 1800م ، كيف لا وهو يعبر عن آراء وعقائد القطاع الأكبر من الشعب .

أما صنوه في التوجس من الدين جيمس ماديسون : فإنه يؤكد رأي جيفرسون
ويرى أن المؤسسة النظامية سوف تحد من التبشير بالنصرانية ، وبالتالي : سوف
تؤذيها ولا تنفعها ، وهذا يتطلب فصل الكنيسة عن الدولة [16] ، فالدين حسب
وجهة نظره ينتشر في أطهر صوره بدون مساندة الحكومة لا في ظلها ، ولهذا : فلم
يعارض ماديسون وجود القساوسة وأماكن الصلاة في الجيش الأمريكي على الرغم
من كونه مؤسسة حكومية ، إلا أنه طالب باستقلالهم عن الإدارة العسكرية [17] .

وفي دراسة قام بها أحد الباحثين ويدعى جون داسمو بعنوان (النصرانية
والدستور) دحض فكرة إلحاد الآباء المؤسسين للدستور الأمريكي ، وبالنظر إلى أهم
ثلاث عشرة شخصية ممن شاركوا في مؤتمر (فيلادلفيا) : فإن ثمانية منهم يمكن
وصفهم بأنهم إنجيليون (أي أصوليون حسب التعبير المعاصر) ، وثلاثة من عامة
النصارى ، واثنان موحدان هما جيفرسون ، وماديسون إلا أنهما قد تحولا إلى
التعاطف مع النصرانية كما يتضح ذلك في كتاباتهم ومحاضراتهم ، ولنا أن نتصور
بعد هذا حال البقية من المشاركين في المؤتمر وتأثرهم بالفكر التطهيري وانعكاس
ذلك على : سياسة الحكومة الداخلية المتعلقة بأتباع هذا الفكر ، والخارجية التي
تطالب بتطبيق تعاليم الكتاب المقدس في أرض الواقع خاصة إذا ما تذكرنا ضعف
الخلافة العثمانية البيّن واحتلال الصليبيين لمواقع متقدمة في البلاد الإسلامية ،

فأصبحت قضية فلسطين مسألة وقت لا أقل ولا أكثر ؛ لأن القرار الشعبي والسياسي
قد اتخذ منذ زمن مبكر جدّاً ؛ منذ أن قامت حركة الإصلاح اللوثرية في أوروبا ،
وكانت الهجرة إلى أمريكا وقيام ذلك الكيان إرهاصات للتوجه نحو احتلال فلسطين .

لقد قام القس النصراني الأمريكي وليام بلاكستون بتكوين البعثة العبرية من
أجل إسرائيل (لاحظ الصراحة في الأسماء فهي ليست نصرانية أو كنسية) والهدف
منها هو : تسريع عودة اليهود إلى فلسطين ، وقد ألّف كتاباً اسمه (المسيح آت)
يربط فيه بين العودتين ، ولا تزال هذه البعثة تعمل حتى يومنا هذا ولكن تحت اسم
(الزمالة اليسوعية الأمريكية) ، وظني أن التغيير قد تم بسبب قيام الكيان الصهيوني
من جهة ، وكذلك عدم إثارة الشكوك ، خاصة وأن بعض المسلمين القلائل قد أخذوا
ينتبهون إلى هذه المنظمات وأدوارها المشبوهة ، وتعتبر المنظمة اليوم قلب جهاز
التأثير (اللوبي) الصهيوني في أمريكا .

وشارك المنصّرون الرحالة والحجاج وعلماء الآثار في هذه المهمة ، فأيقظوا
مشاعر الأمريكيين العاديين نحو العهد القديم والتاريخ اليهودي ليشجعوا الهجرة إلى
فلسطين وإقامة المستوطنات ، وقامت زوجة أحد كبار التجار في (فيلادلفيا) في
سنة 1850م بشراء
أراضٍ كثيرة في فلسطين ، ووهبتها لإقامة مستوطنات يهودية هناك [18]
، ولا يملك المرء أمام هذا إلا ترديد قول الشاعر :

ولو كان النساء كمثل هَذِهْ لفضلت النساء على الرجال

مع فارق المناسبة والأشخاص بالطبع ! إننا لا نستغرب أن تقوم امرأة ثرية
بالتبرع من أجل عقيدتها خاصة إذا كانت تلك هي رغبة الرئيس الأمريكي في ذلك
الوقت ؛ فقد صرح جون آدامز لأحد الصحفيين اليهود بأنه يتمنى رؤية أمة يهودية
مرة ثانية في يهودا [19] .

كذلك كان للسفراء دور في هذه المهمة الدينية ، إذ رفع القنصل الأمريكي في
استانبول يوم كانت حاضرة الخلافة العثمانية مقترحاته إلى وزارة الخارجية التي

تقضي بأن تكون فلسطين وليست أمريكا وطناً لليهود ، فما معنى تصريح كهذا
لدبلوماسي يقيم في بلد أو دولة تتبع لها تلك المنطقة ؟ .. في عرف السياسة يعتبر
هذا تدخلاً صارخاً في الشؤون الداخلية للدولة ، بل والدعوة إلى النيل من سيادتها
الوطنية ، وظني كما أشرت سابقاً أن القضية قد حسمت في أذهان الساسة
الأمريكيين منذ زمن بعيد ، وأصبح التصريح بالدعوة إليها عن طريق
الدبلوماسيين : كالدعوة التي رأيناها إلى استقلال جمهوريات البلطيق عن الاتحاد السوفييتي البائد
أيام حكم جورباتشوف ، أما القنصل الأمريكي في القدس : فيبدو أنه حاول تلطيف
الأجواء ، فقال في مذكراته : متوقعاً أن موضوع استعادة إسرائيل على الرغم من
عدم شعبيته الآن سيكون مقبولاً في العالم غداً ، وهذا الغد هو الذي عبر عنه
الرئيس وورد ولسن قائلاً : إن على ابن راعي الكنيسة (يقصد نفسه) وقد أُعْطِيَ
الفرصة التاريخية لخدمة رغبة الرب بتحقيق البرنامج الصهيوني المساعدة على
إعادة الأرض المقدسة إلى شعبها اليهودي [20]، فبعد تيقنه من هزيمة العثمانيين
في الحرب العالمية الأولى أكد تأييد بلاده لقرار الدول الحليفة بوضع حجر الأساس
للدولة اليهودية في فلسطين ، وأيده مجلس النواب الأمريكي ، وبالتالي : صادقت
أمريكا على وعد بلفور ، وقد لوحظ من خلال سجلات الكونجرس تشابه مواقف
أعضاء الحزبين الجمهوري والديمقراطي واستشهاد كثير منهم بالعهد القديم
والنبوءات التوراتية أثناء المداولات [21].

إن تربية الرئيس ولسن الدينية قد أثرت فيه وفي سياسته ؛ فقد بعث بمذكرة
إلى الحاخام اليهودي استيفن وايز يشعره فيها باهتمامه البالغ والعميق بالعمل البناء
الذي قامت به (لجنة وايزمان) في فلسطين ، وعبر فيها عن ارتياحه للتقدم الذي
تسير عليه الحركة الصهيونية في أمريكا وأوروبا [22]، كما أن الرئيس إبراهام
ترومان وبسبب دراسته التوراة ، مثل سلفه الرئيس إبراهام لنكولن كان يؤمن

بالتبرير التاريخي للوطن القومي لليهود ، وأنه كمعمداني (إنجيلي أصولي) يحس
بشيء عميق له مغزاه في فكرة البعث اليهودي ، وأن موسى (عليه الصلاة السلام)
هو الذي أتى بالمبدأ الأساس لقانون هذه الأمة من على جبل سيناء [23] ، فالشيء
العميق الذي لم يذكره هو : العودة الثانية للمسيح التي يؤمن بها المعمدانيون
النصارى ، التي من شروطها كما بينا : إقامة دولة صهيون كمقدمة للعودة ! أما
الغريب في الأمر هو : ما يقصده بالأمة ، فهل هي أمريكا ؟ أم النصارى عموماً ؟
أم اليهود والنصارى ؟ إن واقع الحال يدل على أنهم اليهود الذين قدمهم النصارى
على أنفسهم بسبب العقائد المتسربة إليهم من العهد القديم الذي لُقّنوه
منذ قرون خلت ، ولم يتوقف دعم الساسة الأمريكيين على البوح بالمشاعر الفياضة والدافئة تجاه
إسرائيل وشعبها ، بل تعدى ذلك إلى الانخراط في الجماعات التي تؤيد النشاط
الصهيوني في فلسطين والغرب على حد سواء ، ومن ذلك : انضمام ثمانية وستين
عضواً من مجلس الشيوخ (مجموع أعضائه : مئة ، يمثل كل ولاية فيه نائبان) الذي
من صلاحياته التصديق ، بل واقتراح القرارات السياسية الخارجية للدول ، ومئتي
عضو من مجلس النواب (مجموع أعضائه قرابة أربعمئة) : إلى اللجنة الفلسطينية
الأمريكية (لاحظ تضليل الاسم) ، التي أسست في الثلاثينيات لتوعية الرأي العام
الأمريكي حول أهداف وإنجازات الصهيونية ، وقد ردّ أحد أعضاء هذه اللجنة من
النواب على رسالة الرئيس روزفلت عندما كان متوجهاً إلى (يالطا) لحضور المؤتمر
الشهير هناك قائلاً : إن ناخبيّ ينظرون إليك كأنك موسى [معاذ الله] المعاصر ،
وينتظرون منك نتائج تتعلق بدولة اليهود في فلسطين [24] .

وبمرور الأيام وتسارع الأحداث : ازداد نفوذ الأصوليين النصارى في أروقة
الكونجرس والمكتب البيضاوي ، وكما سيأتي معنا بإذن الله كيف أن سقوط القدس
في سنة 1387هـ 1967م واقتراب الألف الثانية من نهايتها قد ضاعفا من جهود

الإنجيليين لدرجة أنهم أصبحوا يتحكمون في الانتخابات الرئاسية والنيابية وبالذات
العقد الأخير - كما سيأتي معنا لاحقاً- ، لأن هؤلاء المتطرفين ينطلقون من عقائد
ورثوها عن التطهيريين الأوائل الذين نزلوا الأرض الجديدة ، وتشبعوا بمحتويات
التوراة التي أصبحت مصدراً للقرارات السياسية العالمية ؛ فانطلقوا بكل إمكاناتهم
ليقيموا الكيان الصهيوني ، وقد شاركهم بل سابقهم في ذلك الرؤساء والنواب
الأمريكيون ، ليس بدافع الحاجة إلى المال اليهودي لتمويل الانتخابات كما يظن ،
فهذه ظاهرة متأخرة في النصف الثاني من القرن العشرين ، وإنما إنطلاقاً من عقيدة
راسخة درسوها صغاراً وحاولوا فرضها على الواقع من مراكز نفوذهم كباراً ، ولا
يستثنى من ذلك أحد حتى واضعو الدستور الأمريكي الذي يفترض فيه وجود الأثر
العلماني ، إلا أنه كما بينا أن الدستور نفسه قد وضع بطريقة تضمن انتشار
النصرانية أو البروتستانية بالذات التي صاغت توجهات الساسة ، ولا تزال حتى
عصرنا هذا ، لدرجة وجود مراكز أبحاث في أمريكا مهمتها دراسة أثر (اليمين
الديني) ومنظماته على السياسة الأمريكية [*] .

---

(1) Alix de Tocqueville, Democracy in America, P 114 .
(2) محمد السمّاك : الصهيونية المسيحية ، ص37 .
(3) المرجع السابق ، ص34 .
(4) أسعد السحمراني : من اليهودية إلى الصهيونية ، ص196 .
(5) الصهيونية المسيحية ، ص38 .
(6) المرجع نفسه .
(7) المرجع السابق ، ص42 .
(8) يوسف الحسن : البعد الديني في السياسة الأمريكية ، ص38 .
(9) Domocracy in America, P 45 .
(10) البعد الديني في السياسة الأمريكية ، ص37 .
(11) نورتن فريش و ريتشارد ستفينز : الفكر السياسي الأمريكي ، ص160 .
(12) Garry Wills, Under God, P 368 .
(13) الفكر السياسي الأمريكي ، ص28 .
(14) المرجع السابق ، ص36 .
(15) البعد الديني في السياسة الأمريكية ، ص41 .
(16) Under God, P 375 .
(17) المرجع السابق ، ص379 .
(18) Robert Dugan, Gr , Winning The New Civil War, P 155 .
(19) الصهيونية المسيحية ، ص58 .
(20) البعد الديني في السياسة الأمريكية ، ص40 .
(21) من اليهودية إلى الصهيونية ، ص214 .

(22) البعد الديني في السياسة الأمريكية ، ص45 .
(23) المرجع السابق ، ص47 .
(24) الصهيونية المسيحية ، ص60 .
(25) المرجع السابق ، ص65 . الهامش رقم 25 لم يشار إليه في المقالة (ماس) .
(26) البعد الديني في السياسة الأمريكية ، ص48 . الهامش رقم 26 لم يشار إليه في المقالة (ماس) .
(*) من هذه المراكز : جامعة (ويسكانسن) في مدينة (ماديسون) ، وجامعة (ميتشجن) ، بالإضافة إلى العديد من الجامعات الأصولية ! .

في دائرة الضوء

نحو بناء إسلامي لمصطلح الأقلية

بقلم :كمال السعيد حبيب

يثير مصطلح الأقلية في بعده الأساس : الموقف من الآخر الذي يشاركك العيش في مجتمعك ، أي : ما هو الموقف الأخلاقي والقانوني والحضاري الذي تقفه الأغلبية من الآخر .

النموذج الإسلامي وغير الإسلامي في التعامل مع الآخر :

هناك نموذجان لكيفية التعامل مع المخالفين : أحدهما : النموذج الإسلامي الذي يستمد مصادره من الكتاب والسنة وتطبيقات الخبرة الإسلامية في الفترتين النبوية والراشدة ، وثانيهما : النموذج غير الإسلامي سواء أكان وضعيّاً مصدره العقل البشري أو دينيّاً مصدره أصول محرّفة اختلط فيها الوضع والتحريف بأثارة قليلة من الدين الصحيح .

في النموذج الإسلامي : نلحظ أن قبول الآخر ، والحفاظ عليه ، وترتيب أوضاعه الحقوقية والإنسانية : هو جزء أساس من صُلب النموذج ، فلا يوجد كتاب فقه لم تنتظم أبوابه وفصوله الإشارة إلى قواعد تنظيم علاقة الدولة الإسلامية بغير المسلمين ، سواء أكانوا أهل ذِمّة يربطهم بالدولة عقد مؤبد ، أو كانوا كفاراً حربيين ، أو مستأمنين ، وقد وضع المسلمون لذلك علماً خاصّاً أسموه عِلم السِّيَر [1] ، وهذا العلم يجعل علاقة الدولة الإسلامية بمخالفيها في العقيدة حتى لو كانوا حربيين كفاراً جزءاً من القانون الداخلي للدولة ، يحق لمخالفيها مقاضاتها لو خالفته ؛ ففي الكامل

لابن الأثير واقعة بالغة الدلالة ، تبين إلى أي مدى بلغ رُقي وعظمة السلوك
الإسلامي في التعامل مع المخالفين حتى لو كانوا أعداءً .
كتب عمر بن عبد العزيز إلى سليمان بن أبي السري واليه على سمرقند :
اعمل خانات في بلادك ؛ فمن مَر بك من المسلمين فأقروه يوماً وليلة
وتعهدوا دوابّهم ، ومن كانت به عِلة فأقروه يومين وليلتين ، وإن كان منقطعاً فأبلغه بلده ، فلما أتاه
كتاب عمر ، قال له أهل سمرقند : قتيبة ظلمنا وغدر بنا ؛ فأخذ بلادنا ، وقد أظهر
الله العدل والإنصاف ، فَأْذن لنا فليقدم منّا وفد على أمير المؤمنين ، فأذن لهم ،
فوجهوا وفداً إلى عمر ، فكتب لهم عمر : إلى سليمان : إن أهل سمرقند شكوا ظلماً
وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم ، فإذا أتاك كتابي هذا : فأجلس
لهم القاضي ، فلينظر في أمرهم ، فإن قضى لهم فأخرج العرب إلى معسكرهم ، كما
كانوا قبل أن يظهر عليهم قتيبة ، فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضي ،
فقضى أن يخرج العرب من سمرقند إلى معسكرهم ، وينابذهم على سواء ، فيكون
صُلحاً جديداً أو ظفر عنوة ، فقال أهل الصفد : بلى نرضى بما كان ولا تحدث
حرباً ، وتراضوا بذلك [2] .
هذه الواقعة تؤكد أخلاقية الدولة الإسلامية في التعامل مع المخالفين - حتى لو
كانوا أعداءً- وهو ما يعرف بوحدة القيم في الإسلام ، أي : إن الحضارة الإسلامية
لم تعرف الازدواجية في سلوكها ؛ فهي تعامل الخصم بالقواعد نفسها ، وهذه القواعد
ليست على سبيل التطوع ، ولا على سبيل التبادل ، بل لها طابع إلزامي حتى ولو
لم يلتزم بها الطرف الآخر ، فقد نقض الروم عهدهم مع المسلمين زمن معاوية
(رضي الله عنه) وفي يده رهائن منهم ، فامتنع المسلمون جميعاً عن قتلهم ، وخلوا
سبيلهم ، وقالوا : وفاءٌ بغدر خير من غدر بغدر [3] .
وفي النماذج غير الإسلامية : نجد الحضارة الإغريقية في قمة ارتقائها ، لم
تكن تطبق نظمها الحقوقية والدولية إلا على رعاياها اليونانيين ؛ حيث يشترك

السكان في اللسان والدين والتقاليد والعادات (النموذج الغربي المعاصر في تطبيقه
القومي) ، ولم تكن تلك النظم تطبق على من يطلقون عليهم : البرابرة (كل ما عدا
الإغريق) ، وقال أرسطو : إن الفطرة هي التي أرادت أن يكون البرابرة لليونان
عبيداً ، فليتصرف القائد اليوناني في كل بربري بما يشاء . واليهود : قالوا : ليس
علينا في الأميين سبيل ، واعتبروا الآخرين خدماً لهم ، باعتبار أن اليهود في
زعمهم شعب الله المختار . والهنود : قسموا الناس إلى أربع طبقات البراهمة : وهم
أهل الدين ، والكشترية : وهم أهل السيف ، والريشة : وهم أهل الحِرَف والتجارة ،
والشودرة : وهم الخدم ، وهذا التقسيم طبقي موروث ، لا يمكن لاحد أن ينعتق منه ، وينظر الهنود لطبقة الخدم على أنهم طبقة الأنجاس ، وهم لا يعرفون لأحد من
الأجانب حقّاً في حال السلم أو حال الحرب .

والرومان في أوج مدنيتهم قالوا : ما في الأرض إلا أقوام ثلاثة : الرومان ،
والمعاهدون ، وسائر العالمين ، وكانوا يطلقون على الأجنبي (HOStes) أي : العدو المبين ، أما المتنصرة الغربيون المتأثرون بالإغريق والرومان : فإنهم رأوا الآخرين برابرة لا تلزمهم أية قواعد قانونية أو أخلاقية ، حتى قال هوكو خروتيوس (ت 1645م 1050ه) وهو أبو القانون الدولي الحديث : إن المسيحيين في عصرنا يقدمون في حروبهم على أعمال تستحي منها الوحوش أنفسها ، وقال البابا أربانوس السادس : إن الغدر إثم ، ولكن الوفاء مع المسلمين أكبرُ إثماً ، ويذكر آ دم ميتز : أن الكنيسة الرسمية في الدولة الرومانية ذهبت في معاداتها
للمسيحيين الذين يخالفون رجالها في الفكر أبعد مما ذهب إليه الإسلام بالنسبة لأهل الذمة . و لوقوع التشاجر والتخاصم بين المذاهب النصرانية المتعددة ؛ فإن حاكم أنطاكية المسلم في القرن الثالث الهجري عين رجلاً نصرانيّاً يتقاضى ثلاثين ديناراً في الشهر ، كان عمله منع المتخاصمين من قتل بعضهم بعضاً [4] .

ولما ظهر المذهب البروتستانتي في أوروبا في القرن السادس عشر ، قاومته
الكنيسة الكاثوليكية بكل قوتها ، وعرف تاريخ الاضطهاد النصراني المذهبي مذابح
بشرية رهيبة ؛ أهمها مذبحة باريس عام 1572م ، التي استضاف فيها الكاثوليك
البروتستانت لديهم ، لتقريب وجهات النظر بينهم ، لكنهم قتلوهم ليلاً وهم نيام ، فلما

طلع الصبح على باريس وكانت شوارعها تجري بدماء الضحايا ؛ هنّأ البابا
الكاثوليكي ملكَ فرنسا شارل التاسع الذي وقعت المذبحة في عهده [5] .
وفي إطار الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت في فرنسا : نظم المجلس
النيابي لباريس لجنة خاصة عام 1549م لقمع الخروج على الرأي ، وإرسال
المدانين إلى المحرقة ، وأطلق على المحكمة الجديدة اسم (الغرفة المتأججة) ،
وقضى مرسوم شاتو بريان عام 1551م : بأن طبع أو بيع أو حيازة كتب الهرطقة
يعد جريمة عظمى ، وأن الإعدام هو عقاب الإصرار على الآراء البروتستانتية ،
وخلال ثلاث سنوات أُرسل ستون بروتستانتيّاً إلى الغرفة المتأججة ؛ حيث ماتوا
حرقاً .
وعن كراهية النصارى لليهود يذكر وول ديورانت : كانت نيران الحقد
تضطرم في قلوب المسيحيين ، وكان بنو إسرائيل في تلك الأيام يحبسون أنفسهم في
أحيائهم وبيوتهم خشية أن تثور عواطف السذج من الناس ؛ فتؤدي إلى مذابح .
ولما خرجت الحملة الصليبية الأولى ، أعلن قائدها أنه سيثأر لدم المسيح من
اليهود ، ولن يترك واحداً منهم حيّاً ، وأنه لابد من قتل يهود أوروبا قبل الخروج
لقتال الأتراك في أورشليم [6] .

مصطلح الأقلية في العلوم الاجتماعية :

لأن المصطلحات انعكاس للحضارات التي أفرزتها ، فإن النموذج الغربي
المعاصر الذي يُعد استمراراً للتقاليد الصليبية ولكن في صيغة علمانية هو الذي أنتج
مصطلح الأقلية (Minority) ، وترتبط بهذا المصطلح في الدراسات الاجتماعية
الغربية قضايا تعكس الطابع العنصري ، مثل : التحامل (Pregadce) وما يرتبط
به من معاملات أخرى مثل : القلق (Anxiety) ، والجمود (Rigidity) ، وسوء
الحكم (Misgudgment) ، والتعصب (Fanatism) ، والاضطهاد وعدم

التسامح ، وأيضاً : الصراع وما يرتبط به من عنف ، وتوتر ، وتفرقة
(Descrimination) ، وعدوان ، ثم هناك مفهوم الاضطهاد أو التمييز العنصري
(Segregation) [7] ، وهذه القضايا التي يثيرها الفكر السياسي والاجتماعي الغربي حين دراسته لقضية الأقليات تؤكد على أنه رغم دعاوى التسامح والمساواة وحقوق الإنسان ؛ فإن العلاقة بين الأغلبية والأقلية تتضمن تفاعلات ذات طابع لا يقبل الآخر إلا مكرهاً أو في وضع أدنى ؛ حيث : يتعرض للتحامل والتمييز والاضطهاد والعدوان والتفرقة ، ولنتابع بعض تعريفات الأقلية في الفكر الغربي :

الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية تعرّف الأقلية بأنها : جماعة من الأفراد
يختلفون عن الآخرين في المجتمع نفسه بسبب : العرق ، أو القومية ، أو اللغة ، أو
الدين ، وهم يتصورون أنفسهم كجماعة ذات مضامين سلبية ، وهم يعانون من نقص
نسبي في القوة ، ومن ثم : يخضعون لبعض أنواع الاستعباد والاضطهاد والمعاملة
التميزية المختلفة .

والموسوعة الاجتماعية الأمريكية تعرف الأقليات بأنها : جماعة داخل
المجتمع لها وضع اجتماعي أقل ، وتمتلك قدراً أقل من القوة والنفوذ ، وتمارس
عدداً أقل من الحقوق مقارنة بالجماعة المسيطرة في المجتمع وهي عادة ما تعزل ،
وتخضع للاضطهاد في المواقف والسلوك بسبب اختلافات (فعلية أو مفترضة) :
طبيعية ، أو ثقافية ، أو اجتماعية ؛ باختصار : فإن أفراد الأقليات غالباً ما يحرمون
من الاستمتاع الكافي بامتيازات مُواطن الدرجة الأولى [8] .

وهذه التعريفات تجعل من الأقلية موضوعاً غير فاعل ؛ أي : إن الأغلبية هي
التي تحدد وضع الأقلية في المجتمع ، وتجعلها دائماً في مكانة المستلب أو
المضطهد ، ولذا : فقد عمد بعضهم إلى طرح مفهوم للأقلية يجعلها طرفاً فاعلاً في مجتمعها ،
بحيث تمكنها من ممارسة تكتيكات دفاعية متمايزة عن الأغلبية إذا لم تحصل على
حقوقها بشكل متساوٍ مع الأغلبية ، كما اتجه البعض للبحث عن مصطلحات بديلة
لمفهوم الأقلية لاستبطانه دلالات عنصرية ، ويمكن افتراض أن الاتجاهين في

تعريف الأقلية يعبران عن استراتيجيتين غربيتين في التعامل مع الأقلية :
أحدهما : تعرف ببوتقة الصهر (Melting - Pot) التي تحاول امتصاص
الأقلية واستيعابها في الأغلبية : بحيث يصبح المجتمع موحداً في صيغة متماثلة
بدعوى تحقيق التكامل (Integesation) .
ثانيهما : تعترف بالتعدد ، لكنها تضع حدوداً قصوى ودنيا يجب أن يمارس
التنوع في إطارها ، بحيث لا يؤدي إلى تفجير المجتمع من الداخل . ومارست
الدولة القومية المعاصرة الاستراتيجية الأولى ، التي تؤكد الطابع المهيمن والمركزي
للحضارة الغربية في علاقتها بالآخر ، لكنه ثبت فشل هذه الاستراتيجية ؛ لأنه لا
يمكن إلغاء الولاءات والانتماءات الأولية للجماعات الأخرى المكونة للمجتمع .

المصطلحات التي استخدمتها الحضارة الإسلامية :

لم تعرف الحضارة الإسلامية مصطلح الأقلية طوال تاريخها للتعبير عن غير
المسلمين الذين يقيمون داخلها ، وإنما عُرف هذا المصطلح لأول مرة في إطار
صراع الدولة العثمانية مع القوى الأوروبية للإجهاز عليها فيما أطلق عليه المسألة
الشرقية ، وذلك باستخدام القوى الغربية للأقليات التي تعيش داخل الدولة العثمانية :
كمخلب قط لتفتيتها بدعوى حماية هذه الأقليات والحفاظ عليها .
فمصطلح الأقلية ظهر في العالم الإسلامي مرتبطاً بقوى خارجية تسعى لإثارة
القلاقل وعدم الاستقرار داخل المجتمع المسلم ، أما المسلمون : فقد استخدموا
مصطلح الملة للتعبير عن الفئة غير المسلمة التي تعيش بينهم ، وبينما كان نظام
الملة العثماني المستمد من الخبرة الإسلامية للدولة النبوية يقيم العلاقات بين
المسلمين وغير المسلمين على قاعدة التسامح والاعتراف بالتنوع في إطار الوحدة
وتحقيق العدل والحماية ؛ فإن مصطلح الأقلية ارتبط بالتدخل الغربي وارتباط فئات
داخلية من المجتمع الإسلامي به ، وبالتالي : تأكيد تمايزها عن المجموع والغالبية ،
لتحقيق مآرب سياسية وتأسيس الطائفية .

المصطلحات التي استخدمتها الحضارة الإسلامية للتعبير عن الآخر (غير
المسلم) الذي يشارك المسلمين أوطانهم تؤكد مشروعيته .

وأهم هذه المصطلحات :

أهل الذمة : وهم المعاهدون من اليهود والنصارى وغيرهم ممن يقيمون في
دار الإسلام على سبيل التأبيد ، حيث يربطهم بالدولة الإسلامية عقد يكفل لهم الأمان
والحماية والحرمة ، ويصبحون من أهل دار الإسلام شرط أن يبذلوا الجزية
ويلتزموا أحكام الملة .

أهل الملة : وهي الصيغة العثمانية لترتيب أوضاع غير المسلمين فيها ، على
أساس منحهم حق إدارة شؤونهم الخاصة والعامة تحت إشراف الدولة وعن طريق
رؤسائهم .

وهذه المصطلحات تجعل الدين فقط معيار التمييز بين المسلمين وغير
المسلمين ، ولا تقيم للعِرق أو اللغة أو القومية أي أثر في ترتيب أوضاع البشر
داخل مجتمعاتهم [9] .

نحو بناء إسلامي لمصطلح الأقلية :

تضمنت مفردات اللغة كلمة الأقلية كتعبير عن الجزئية والاستثناء ، أو مباينة
الكثرة أو الغالب ، وتشير معاجم اللغة إلى مادة قَلَلَ التي اشتقت منها كلمة الأقلية ؛
فقد جاء في لسان العرب : قلل القلة خلاف الكثرة ... وفي حديث ابن مسعود :
الربا وإن كثر فهو إلى قِل معناه : قِلة ... ويقول : قدم علينا قُلُلٌ من الناس إذا كانوا
من قبائل شتى متفرقين ، وقلة كل شيء رأسه ، والقلة أعلى الجبل ، وقلة كل شيء
أعلاه .

ويشير معجم القرآن الكريم إلى أن الكلمة في القرآن تشير إلى النقص ، كما
في قوله (تعالى) : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : 249]
وقوله (تعالى) عن فرعون : ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء : 54]
وبالتأمل في الدلالة اللغوية التي اشتقت منها كلمة أقلية نلاحظ :

أولاً : استخدمت للتعبير عن دلالة كمية تقابل الأكثر ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً

فَكَثَّرَكُمْ [الأعراف : 86] .
ثانياً : استخدمت للتعبير عن دلالة كيفية لا تجعل العدد معياراً لها ؛ كما في
حديث ابن مسعود : الربا وإن كثر فهو قُل ، وكما في قول لبيد :
كلّ بَنِي حُرّةٍ مَصِيرُهُمْ .. قُلّ وإن أكْثرتْ من العَدَدْ
فالقلة هنا : تعبير عن حالة كيفية العدد المجرد وليست معياراً لها .
ثالثاً : قد تعبّر عن حالة كيفية خالصة ؛ كما في تفسير القلة بأعلى الشيء ،
وكما في التعبير القرآني حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً [الأعراف : 57] أي :
حملت وارتفعت .
رابعاً : تشير الكلمة إلى تجمع الأشتات المتفرقين من أصول عرقية متعددة ،
وهو ما يعنيه المصطلح في العلوم الاجتماعية ، وهو واضح جدّاً ، كما في قوله :
قدم علينا قُلُلٌ من الناس إذا كانوا من قبائل شتى .
وإذا تأملنا السياق القرآني تفتحت لنا آفاقاً أوسع للفهم ؛ ففي القرآن استخدمت
الكلمة مرات عدة :
أولاً : في مقابل كلمة ثُلّة لتدل على تعبير كمي في سياق كيفي ؛ كما في قوله
(تعالى) : ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ [الواقعة : 13 ، 14] فالقلة
هنا لا تعني النقص ، وإنما التمييز والسبق والارتقاء .
ثانياً : ألحِق بها ما يزيدها بياناً بحالة اجتماعية وسياسية تعبر عن
الاستضعاف ؛ كما في قوله (تعالى) : وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي
الأَرْضِ تَخَافُونَ ... [الأنفال : 26] .
ثالثاً : تقدم عليها ما يزيدها بياناً ، وهي كلمة : شرذمة في إطار سياق
اجتماعي وسياسي يعكس أكثر الحالات تعبيراً عن مفهوم الأقلية كما تذهب إليه
العلوم الاجتماعية الحديثة وذلك في قوله (تعالى) حكاية عن فرعون في وصفه لقوم
موسى بعد أن خرجوا من مصر : إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا
لَغَائِظُونَ [الشعراء : 54 ، 55] ، ويميل كاتب هذه السطور لافتراض أن كلمة
شرذمة قليلون في هذا السياق تعكس الدلالة السياسية والاجتماعية لما يشير إليه

مصطلح الأقلية من وجهة نظر الأغلبية والسلطة الحاكمة ، حيث تسود بينهما علاقة
صراعية استخدمت فيها أدوات القهر المعنوي والمادي بقصد استئصال الأقلية
ومحوها من الوجود ، وربما يدفعنا ذلك إلى أن نؤكد العلاقة بين طبيعة النظام
السياسي وبين ممارساته تجاه الأقلية ، حيث يميل النظام الفرعوني الاستبدادي إلى
عدم التسامح مع الأقلية التي تقع تحت سلطانه ، وقد يجنح إلى حد العمل على
استئصالها ، ويمكن لنا أن نقول : إن تطبيقات فرض التكامل القومي بمعنى سحق
الولاءات الأولية لصالح الأيديولوجية الواحدة التي تفرضها الأنظمة الثورية في
العالم الثالث هي تعبير عن ممارسة تدخل في إطار النموذج الفرعوني .

رابعاً :

إن تعبير الاستضعاف مصطلح قرآني أكثر تعبيراً
عن مصطلح الأقلية
، ولكن من حيث رؤية هذه الأقلية لذاتها تجاه الجماعة الحاكمة التي توصف عادة
في القرآن الكريم بالاستكبار ، حين يكون الصراع بين الأقلية والأغلبية حول
المبدأ [*] .

خامساً : التعبير القرآني يستخدم القلة للتعبير عن النقص العددي ، لكنه لا
يجعل مجرد النقص العددي مثاراً للاحتقار أو مبرراً للتقليل من الشأن ، بل الغالب
أن القلة تستخدم في السياق القرآني للتعبير عن المدح والتقدير ، وهو ما يؤكد أن
الإطار القرآني لا يجعل من المعيار العددي المجرد مقياساً لترتيب أوضاع اجتماعية
وسياسية واقتصادية متميزة ، فتعبير القلة أو الكثرة هو تعبير محايد حتى يأتي
وصف يحدد طبيعة هذه الكثرة أو القلة ، وهو ما يطلق عليه : التعبير الوظيفي للعدد .

ويمكن استخدام مصطلح الأقلية للتعبير عن التعدد الثقافي أو العِرقي لجماعة
من البشر في مواجهة جماعة أخرى تعبر عن الأكثرية أو التميز في سلم التدرج

الاجتماعي والسياسي ، لكنه يحتاج إلى تحديد وضبط ليعبر عن الخصوصية
الحضارية الإسلامية .

وتعرّف هذه الدراسة الأقلية من منظور إسلامي على النحو التالي [10] :

الجماعة التي تعيش داخل المجتمع الإسلامي على سبيل الاستقرار (الدوام)
ولها حكم شرعي مختلف عن أحكام الجماعة المسلمة ، أو التي فارقت الجماعة
المسلمة بتأويل ديني لا يسوغ .

فلا يعد أقلية من وجهة النظر الإسلامية : المستأمنون الذين يدخلون دار
الإسلام لضرورات تفرضها طبيعة العلاقة بين دار الإسلام ودار الحرب .

كما ينظم العلاقة بين الجماعة المسلمة والأقلية الحكم الشرعي لا معيار الكثرة
أو القلة العددية ، ونقصد بالحكم الشرعي : اجتهاد ولي الأمر في تحديد الأوضاع
المنظمة لتواجد غير المسلمين في المجتمع الإسلامي بما لا يتعارض مع المقاصد
العامة للشريعة أو نصوصها القطعية .

ويعد أقلية : من فارق إجماع المسلمين بتأويل ديني لا يسوغ ، أي : لا تجيزه
قواعد اللغة والشرع أي الجماعات المخالفة لإجماع الأمة ويدخل ضمن هؤلاء :
البهائيون ، الإسماعيليون ، الدروز ، العلويون ، بعقائدهم الباطنية
المصادمة للإسلام ، فهم ينتسبون للإسلام ، ولكنهم ليسوا منه ، فهم أحق بوصف الردة بتعبير عبد
القاهر الجرجاني وغيره .

ولا يدخل ضمن الأقلية من وجهة النظر هذه : الأكراد ، البربر ، الأتراك ..
وغيرهم ممن تعتبرهم الدراسات الحديثة أقلية ، وكما يقول فاضل رسول : إن طرح
علاقة الشعوب الإسلامية ببعضها ضمن مفهوم الأقلية والأكثرية هو أمر خاطئ ؛
فالإطار الإسلامي من المفترض أن يجمع المسلمين من أي شعب وقوم ، فلا توجد
هنا أغلبية وأقلية ، وإذا اعترفنا بوجود انتماءات قومية مختلفة : فيمكن الكلام ربما
عن شعب صغير وآخر أكبر ، ولكن ليس عن أكثرية وأقلية .

إن العلاقة بين الشعوب المسلمة ضمن البلد الواحد لا يمكن فهمها على أساس
علاقة الداخل بالخارج ؛ فتاريخيّاً : كانت علاقة الشعوب الإسلامية ببعضها علاقات
مركز بأطراف ، وليست علاقة داخل بخارج ، وكانت علاقة المركز بالأطراف
قابلة للتداول ، ولا تعتمد على القهر ، أما الحالة التي نعيشها فهناك ضغط دائم من
الأطراف على المركز ، ربما لصالح أطراف خارجية .. [11] .

إن معيار الحكم الشرعي الذي تتبناه هذه الدراسة لإعادة التعريف بمصطلح
الأقلية من وجهة النظر الإسلامية يتميز بالآتي :

أولاً : أن الحكم الشرعي معيار فوقي ؛ بمعنى : أن الله هو الذي أمر المسلمين
بقبول غير المسلمين في إطار البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية الإسلامية ،
وأمر بالإحسان إليهم وحمايتهم إذا دفعوا الجزية وقبلوا التزام أحكام الملة ، وعقد
الذمة بهذا المعنى ، ورغم أن الذين يوقعونه بشر ، إلا أن مصدره الله والرسول ،
وهو بهذا واجب شرعي وتكليف إلهي لا يمكن مخالفته .

ثانياً : أنه معيار ثابت لا تعتريه التغيرات ، ولا تكيفه أهواء البشر ، وهو
منضبط ، بمعنى أن استخلاص الحكم الشرعي محكوم بقواعد علمية صارمة يتم
الاجتهاد في ضوئها .

ثالثاً : أنه صريح ؛ فهو لا يتبنى خطاباً مراوغاً يحاول أن يلغي فيه
خصوصية غير المسلمين .

بعض المراجع والصادر :

(1) محمد حميد الله : مقدمة في علم السّيَر ، أو حقوق الدول في الإسلام ، ضمن كتاب ابن القيم الجوزية : أحكام أهل الذمة بتحقيق صبحي الصالح ، ص 74 وما بعدها .

(2) ابن الأثير الجزري : الكامل ، ج4 ، ص48 ، 49 .

(3) أبو يعلى : الأحكام السلطانية ، تصحيح وتعليق الفقي ، ص48 ، 49 .

(4) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة : أبو ريدة ، ص68 .

(5) القرضاوي : غير المسلمين في المجتمع المسلم ، ص73 .

(6) وول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة عبد الحميد يونس ، م4 ، ج3 ، ص54 .

(7) سميرة بحر : المدخل لدراسة الأقليات ، ص18 .

(8) نيفين مسعد : الأقليات والاستقرار السياسي ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، رسالة دكتوراة ، ص10 .

(9) كمال السعيد حبيب : الأقليات والحماية السياسية في الإسلام ، دراسة حالة للدولة العثمانية ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة

(*) استخدمت هذه المصطلحات استخداماً استهلاكيّاً من قِبَل بعض الفئات ، ونحن نُقِرّ بها باعتبارها مصطلحات قرآنية ، لكننا ننأى بها عن مثل تلك الاستخدامات الدعائية - البيان - .

(10) السابق .

(11) فاضل رسول : الإسلام والقومية أفكار حول تجربة الشعب الكردي ، الحوار ، صيف 1986 ، السنة الأولى ، ص17 .

مقال

استثمار المواقف

بقلم : خالد السبيعي

أورد ابن حجر في (لسان الميزان) قصة عجيبة ، ذكرها أبو محمد ابن حزم لعبد الله بن محمد بن العربي والد القاضي أبي بكر أنه أي : ابن حزم شهد جنازة ، فدخل المسجد فجلس قبل أن يصلي ، فقيل له : قم فصلِ تحية المسجد ، ففعل ، ثم حضر أخرى فبدأ بالصلاة ، فقيل له : اجلس ليس هذا وقت صلاة وكان بعد العصر فحصل له خزي ، فقال للذي ربّاه : دُلني على دار الفقيه ، فقصده وقرأ عليه الموطأ ، ثم جدّ في طلب العلم بعد ذلك .

لقد أجاد أبو محمد كما رأينا في التعامل مع هذا الموقف ، وحوّله من خسارة إلى مكسب ، إن هذه القصة نموذج ساطع لفن التعامل مع المواقف واستثمارها .

ولا نستطيع في الواقع الاستمرار في الحديث عن الموقف واستثماره دون وضع تعريف محدد للمقصود به هنا ، فالموقف إذاً : هو كل ما يتعرض له الفرد من أحداث ويتطلب منه اتخاذ قرار - إيجابي أو سلبي- تجاه هذه الأحداث ، ويكون له القدرة على اتخاذه ، وبعبارة أخرى : فالحياة : مجموعة من المواقف .

إن استثمار المواقف يحتاج إلى منهج واضح ، لعلنا في هذه العجالة نلقي ضوءاً على بعض أسسه .

إن المبادئ التي يحملها الفرد ، والقيم التي تحكم تصرفاته ، والطباع الشخصية المحركة لدوافعه ، تمثل الأسس الداخلية التي يقوم عليها منهج الاستثمار المتوازن للمواقف ، فضعف الإيمان بالمبدأ مثلاً أو قوته ومدى سلبيته أو إيجابيته ونتائج التخلي عنه تحدد مدى قوة تأثير العامل .

كما إن هناك مؤثرات أخرى (خارجية) ، كالبيئة التي يعيش فيها الفرد
والأصدقاء المقربين له ، والضغوط التي يتعرض لها سواء أكانت اجتماعية أو
اقتصادية أو فكرية أو غير ذلك ، وسيكون استعراضي هنا لأثر الأسس أو العوامل
الداخلية (الفردية) ، وذلك لأنها المحدد النهائي لمدى الاستجابة (الاستثمار) وكيفيتها .

فالأَنَفَة على سبيل المثال طبع شخصي عند ابن حزم ، دفعته إلى تصحيح
وضع خاطئ (جهل المرء بدينه) بإيجابية ملهمة كما رأينا سابقاً وجعلته فيما بعد
علماً من أعلام الفقه الإسلامي .

والتعصّب الأعمى للقبيلة وكل تعصّب أعمى من القيم الجاهلية المعروفة ، إلا
أن أثرها كما سيظهر في القصة التالية خطير وجد خطير .

فقد أورد ابن كثير في (البداية والنهاية) رواية للبيهقي ، جاء فيها : أن أبا
جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله - صلى الله
عليه وسلم- وهو يصلي بالليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع منه ،
وكلّ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر
تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم
بعض سفهائكم لأوقعتم في نفوسهم شيئاً ، ثم انصرفوا ، وتكرر هذا الأمر
ثلاث ليال ، حتى قالوا : لا نبرح حتى نتعاهد على ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا ،
فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته
وسأله عن رأيه فيما سمع ، فأجابه أبو سفيان بأن ما سمعه لم يكن كلاماً منكراً أو لا
يعقل ، وكذلك كان رأي الأخنس ، ثم أتى الأخنس إلى أبي جهل وسأله عن رأيه
فيما سمع ، فقال أبو جهل : ماذا سمعت ؟ ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ،
أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ،
وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟
والله لا نسمع له ولا نصدقه ! .

انظر إلى أثر هذه القيم ، وما تفعله بالبشر ! .
أما عن أثر المبادئ وهو الأهم على استثمار المواقف فالشواهد عليه لا
تحصى ، وسنعرض لموقف فريد منها ، لم يتكرر في القرآن الكريم ، ولم يذكر
صاحبه إلا في هذه السورة التي حملت اسمه ، إنه نبي الله يوسف (عليه الصلاة
والسلام) .
وسنتوقف قليلاً عند هذا الموقف ونتأمله ، كما وصفه الله (عز وجل) في محكم
تنزيله .
رزق يوسف (عليه السلام) بجمال أخّاذ في الخلقة ، وعقل راجح ، وفصاحة
في البيان ، مما جعله محط أنظار الناس .
وسكن في بيت العزيز (حاكم مصر) بعد أن اشتراه بثمن بخس ! ! ، وأعجبت
به امرأة العزيز وَرَاوَدَتْهُ الَتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ
لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ
وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
المُخْلَصِينَ (24) وَاسْتَبَقَا البَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا البَابِ قَالَتْ مَا
جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [يوسف : 23-25] .
كانت الظروف كلها مهيأة تقريباً لحدوث ما لا تحمد عقباه ، إن حب الشهوات
طبع بشري عالجه يوسف (عليه الصلاة والسلام) وأزاله بالمبدأ السامي
(طاعة الله) ، الذي هو عقيدة كل مسلم .
وختاماً : فإن الفرد منا بحاجة إلى مبادئ صحيحة يعتقدها وتنير دربه ، وقيم
صالحة ينتقيها ، وطباع بشرية يهذبها ، ليكون الاستثمار الأمثل للحياة .

منتدى القراء

ضغط الواقع

بقلم :خالد محمد الذواد

يتخذ الأفراد والجماعات والأمم في أحيان كثيرة مواقف معينة ، ما كانت لتتخذ

لولا وجود عوامل ضاغطة ، أدى تراكمها إلى اتخاذ هذه المواقف ، المغايرة لما كان
ينبغي اتخاذه .

وهذه العوامل نطلق عليها : ضغط الواقع ، وهو : تلك العوامل الضاغطة
المجتمعة ، التي تؤثر في اتخاذ موقف ما .

ومقاومة ضغط الواقع تنعدم حتماً بانعدام القدرة على المقاومة وانعدام إرادة
المقاومة ، وبالنسبة لنا نحن المسلمين فالقدرة هي قوتنا الذاتية بكافة أشكالها ،
والإرادة نستمدها من إيماننا وعقيدتنا ، وما موقفا معتّب بن قشير (المنافق) وسعد
ابن معاذ (الصحابي) إلا تصوير لذلك الخيط الدقيق لما بين المؤمن والمنافق من
فروق .

فعندما تحزبت الأحزاب على المسلمين زاعمة استئصال شأفتهم في شوال من
السنة الخامسة للهجرة قبائل العرب من الخارج ، واليهود من الداخل عظم البلاء
واشتد الخوف ، وظن المؤمنون بالله الظنون ، في تلك اللحظة قال معتب : كان
محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن
يذهب إلى الغائط [1] .

لم يستطع معتب مقاومة ضغط الواقع الذي عاشه في تلك اللحظة ، بسبب
انعدام القدرة والإرادة ، فقال من كلمات الكفر ما قال ، وفي مقابل هذا اتخذ سعد بن
معاذ موقفه الرائع ، فقد بعث الرسول -صلى الله عليه وسلم- عندما اشتد خطر
الأحزاب إلى عيينه بن حصن والحارث بن عوف قائدي غطفان ليعطيهما ثلث ثمار
المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، وقبل أن يتم الصلح على هذا
استشار سعد بن معاذ وسعد بن عباده ، فلما علما أنه يفعل ذلك من أجلهم ولحمايتهم
والتخفيف عنهم ، قال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على
الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها
تمرة ، إلا قرى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا إليه ، وأعزنا بك وبه ،

نعطيهم أموالنا ! والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله
بيننا وبينهم [2] .

لم يؤثر ضغط الواقع الذي عايشه سعد على موقفه ، بل تحرر منه بإيمانه
وعزته وشجاعته ، فسجل له التاريخ موقفاً لا يمكن أن ننساه .

أما عن المواقف المعاصرة : ففي كل بيئة ، في كل بيت ، بل وعند كل فرد ،
فالعالم والمفكر والقائد وكل فرد معرض لضغط الواقع ، وقليل فقط من يستطيع
مقاومة كل الضغوط ، ومن ثم : التحرر التام منها .

وقد يتخذ الفرد موقفاً ما تحت ضغوط معينة ، لا يشعر هو بوجودها ، وعدم
شعوره لا يعني بالطبع عدم وجودها حقيقة ، وينبغي على الفرد أيّاً كان أن يتخذ
مواقفة بمعزل عن تأثير الضغوط المختلفة مهما بلغت قوة هذه الضغوط ، لكي تكون
حياته في النهاية والتي هي مجموعة المواقف التي يتخذها كما يريد هو وكما يعتقد ،
لا كما تفرضها عليه ظروفه .

---

(1) سيرة ابن هشام .
(2) سيرة ابن هشام .

منتدى القراء

دعوة إلى اكتشاف الطاقات الكامنة

بقلم : عبد الله بن ناصر الحمد

لاشك أن ساحة العمل الإسلامي المعاصر تشتكي من النقص الكبير في
كوادرها العلمية والعملية ، ومع وجود هذه المشكلة فإنه يندر أن ننتبه إلى عدم
صلاحية أحد الأشخاص في مكانه الذي يشغله ، وذلك للحاجة الشديدة التي تستدعي
أي شخص لشغل هذه الأماكن الشاغرة ، لذلك نلمس في العمل الدعوي أن إنتاجية
عدد كبير من الدعاة تصبح دون المستوى المطلوب نظراً لوجودهم في غير الأماكن
المناسبة لقدراتهم .

وإذا أدركنا حجم هذه المشكلة فإن علاجها يسهل كثيراً ، إذ إن إدراك المرض
أول خطوات العلاج ، ولا أزعم أني سوف أستوعب علاج هذه المشكلة ، لكن

حسبي فتح الباب أمام المختصين حتى يدلوا بدلوهم لوضع الحلول لهذه المشكلة
الخطيرة .
وفي البداية : أؤكد على أهمية الإحساس بالمشكلة ، ونشر الوعي بخطورتها
بين الأوساط الدعوية ، حتى تتفتق الأذهان ، ثم تبحث عن علاجات لهذه المشكلة ،
فأهل الخبرة لهم القِدْح المعلّى في مثل هذه المشكلات .
وثانياً : لابد أن يعي الدعاة وسائل استغلال الطاقات وتوجيهها ، فلا يعامل
جميع الأشخاص معاملة واحدة ، بل لابد من توجيه كل شخص إلى ما يمكن أن يبدع
فيه ، وهذا أمر يدركه أصحاب النظر والعاملون على إعداد العاملين في سلك الدعوة .
أما إذا لم يوفق الشخص إلى من يوجهه إلى ما ينفعه وإلى الوجهة التي يصلح
لها ، فالأمر حينئذ أصعب ، وفي هذه الحالة فإني أقترح أن يقوم الشخص بفحص
مهاراته ومحاولة استخراج أجدى الاتجاهات التي يمكن أن ينتج ويفيد من خلالها ،
مع الحرص على استشارة الآخرين ودراسة تجارب من سبقه .
وفي الختام أدعو قراء مجلتنا البيان إلى طرح حلول جادة لهذه المشكلة ، فإنها
والله مشكلة مهمة تستحق أن يتوقف عندها كل مخلص وكل داعية إلى هذا الدين .
والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

الورقة الأخيرة

الشهوة الخفية !

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

أواخر الخلافة العثمانية كثر صراع السلاطين على الزعامة والنفوذ ، وانتشر
السجن والقتل بينهم ، حتى إنّ أحد الخلفاء قتل تسعة من إخوانه لتثبيت حكمه وحكم
ولده من بعده .. !
أليست هذه الحادثة جديرة بالتأمل والنظر .. ؟ !
غريب هذا الإنسان .. ألهذا الحدّ يبلغ به بريق الزعامة .. ؟ !
ألهذا الحد يطغى ويتجبر من أجل الوصول إلى القمة .. ؟ !

وليس هذا المثال نشازاً لا نظير له ؛ فكتب التاريخ في قديم الدهر وحديثه
طافحة بنظائره ، بل إنّ التاريخ الحديث يُرينا إبادة وإذلال شعوب بأكملها ، فحبّ
الزعامة والظهور يُعمي ويصم ، ويجعل الإنسان يبيع كل شيء من أجل الوصول
إليها .. !
وليس عجيباً أن تتواتر النصوص النبوية في التحذير من السعي إلى الإمارة ،، فهي فتنة تتساقط تحتها كرامة الرجال ، وتنكشف أمامها كمائن القلوب .. !
لقد اعتدنا ذلك من الساسة وطلاب الدنيا وأصحاب المغانم الفانية .. ولكن
الغريب كل الغرابة أن ينتقل الداء داخل بعض التجمعات الدعوية ، ويسيطر على
بعض النفوس المريضة ، من حيث تشعر حيناً ، ومن حيث لا تشعر أحياناً أخرى !
حتى يصبح همّ المرء أن يسوّد على خمسة أو عشرة أو أقل أو أكثر دون أن يُفكر
بورع صادق في تبعات ذلك في الدنيا والآخرة ، فهي أمانة .. وإنها يوم القيامة
خزي وندامة .. !
إنّ ضباباً كثيفاً يطغى على بصر الإنسان حينما يرى لمعان القيادة يطل عليه
من بعيد ، وتظل نفسه تحدّثه ويُمنيه هواه بالوصول إليها ، فتراه ينسى نفسه ويلهث
من أجل الوصول إليها والعض عليها بالنواجذ ، ثم تجد التسابق والتنافس ، بل الكيد
والكذب أحياناً للوصول إلى المطلوب ، فالغاية تبرّر الوسيلة ! وصدق الفضيل بن
عياض عندما قال : ما من أحد أحبّ الرياسة إلا حسد وبغى ، وتتبع عيوب الناس ،
وكره أن يُذكر أحد بخير [1] .
بئست الدعوة حينما تكون مغنماً وجاهاً وشرفاً ، ينتفخ فيها المرء ويتيه
ويتبختر .. !
وبئس الداعية حينما يسعى لاهثاً وراء زخرف عاجل وعرض قريب .. !
إنّ حبّ الظهور والعلو بداية السقوط والانحراف والفشل ، وما أحكم رسول
الله حينما يقول : ما ذئبان جائعان أرسلا في غنمٍ بأفسد لها من حرص المرء على
المال والشرف لدينه [2] .

قال شدّاد بن أوس (رضي الله عنه) : يا بقايا العرب .. يا بقايا العرب ! إنّ
أخوف ما أخاف عليكم : الرياء ، والشهوة الخفية ، قيل لأبي داود السجستاني : ما
الشهوة الخفية ؟ قال : حب الرئاسة ! [3] .

وإنّ نصر الله (عز وجل) وتأييده لا يتنزل إلا على عباده المخلصين ،
الأخفياء الأتقياء ، الذين تشرئب أعناقهم وتتطلع قلوبهم إلى النعيم المقيم ، في مقعد
صدق عند مليك مقتدر ؛ قال الله (تعالى) : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا
يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : 83] .

---

(1) جامع بيان العلم وفضله : ج1 ، ص143 .
(2) أخرجه أحمد : ج3 ، ص460 ، والترمذي : كتاب الزهد ، باب 43 ، ج 4 ، ص 588 وإسناده صحيح .
(3) شرح حديث أبي ذر : ص25 ، وجامع الرسائل ج1 ، ص233 ، كلاهما لابن تيمية .

تمت بعون الله وفضله